من كنوز القرآن
٨

لطائف قرآنية

الدكتور
صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثانية
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونستعينُه ونستهديه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا، ومن سيِّئاتِ أعمالنا. مَنْ يهدِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هاديَ له. وأشهدُ أنْ لا إلَه إلَّا الله، وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، صلواتُ الله وسلامُه عليه.

أمَّا بعد:

فإنَّ في القرآنِ الكريمِ كنوزاً ضخمةً من الإشاراتِ واللَّفتات، واللطائف والإيحاءات، والمعاني والحقائقِ والدلالات.

ويُقْبِلُ العلماءُ على القرآن الكريم، ويستمتعونَ بما يفتحُ به اللَّهُ عليهم من تلكَ اللطائفِ والمعاني والحقائق.

وقد صدقَ أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في وصْفِه للقرآن، وذلكَ حيثُ يقول عنه: (... فيه نبأُ ما قَبلكم، وخبرُ ما بعدكم، وحُكْمُ ما بَيْنَكُمْ... مَنْ تركَهُ مِنْ جبّارٍ قَصَمه الله، ومَنِ ابتغى الهُدى في غيرِه أَضَلَّهُ الله. وهو حبلُ الله المتين، وهو الذِّكْرُ الحكيم، وهو الصراطُ المستقيم. وهو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسنة، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخْلُقُ عن كثرَةِ الرَّدِّ، ولا تَنقضي عجائبُه... مَنْ قالَ به صَدَق، ومَنْ عمل بهِ أُجِرَ، ومَنْ حَكَم به عَدَل، ومَنْ دَعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم).

إنَّ تدبُّرَ آياتِ القرآن، والاستمتاعَ بلفتاتِه ولطائفه، نعمةٌ غامرةٌ من اللَّهِ

المنعم الكريم، نعمةٌ لا يعرفُها إلاَّ مَنْ ذاقَها، نعمةٌ ترفعُ العمرَ وتباركه وتُزكِّيه.

وإنَّ القرآنَ الكريم الحبيبَ، هو أنفسُ ما تُوَجَّهُ له النظرات، وتُنْفَقُ فيه الأوقات، وتُعَدُّ حولَهُ البحوثُ والدراسات.

وإنَّ تلاوةَ القرآن عبادة، وحفظَه عبادة، والنظرَ فيه عبادة، وتدبُّرَه عبادة، وتفسيرَه عبادة، والكلامَ عنه عبادة، وتقديمَ حقائقه ودلالاته ولطائفه عبادة، ودعوةَ الناس إليه عبادة، والحياةَ في ظلاله عبادة، وتطبيقَ توجيهاته عبادة، والحركةَ به في الواقع عبادة، ومواجهةَ الجاهلية وجهادَها به عبادة، وكلُّ ما يتصلُ به عبادةٌ لله سبحانه وتعالى.

وقد كانتْ لي نظراتٌ في أُسلوب القرآن بينَ الحينِ والآخر، ووقفاتٌ أَمامَ آياتِه ومفرداتِه، وقد استمتعتُ بما أكرمني اللّهُ به، من إدراكٍ لبعضِ إشاراتِه ولفتاتِه ولطائفه.

وكنتُ أتحدَّثُ عن بعضِ ما أَقِفُ عليه، في المحاضراتِ الأكاديمية، وفي دروسِ التفسيرِ العامَّة، فيُعْجَبُ بها السامعون، ويَزدادونَ إعجاباً بالقرآن، وحِرْصاً على العلمِ بمعانيه، وتدبرِ أُسلوبه.

وأَحببتُ أنْ أُقدِّمَ بعضَ تلك اللطائفِ واللفتات، وأَنْ أَعْرِضَها أَمامَ عددٍ أكبر من محبِّي القرآن ومتدبِّريه، فكانت هذه الرسالة «لطائف قرآنية» حلقةً من حلقاتِ مكتبة القرآن التي أُقَدِّمُها تحتَ عنوان «من كنوز القرآن».

مهَّدْتُ لهذه اللطائفِ بتمهيد، تكلمتُ فيه عن تدبُّر القرآن، وعن مظاهرِ البركة فيه، وعن غزارةِ معانيه بحيثُ لا يَشبعُ منه العلماء، ولا تَنقضي عجائبُه.

وأَشرتُ في التمهيد إلى أَنَّ المعاصرين ــ ومَنْ بَعْدَهم ــ قد يجدونَ من

لطائفِ القرآن وحقائقه ما لم يجدْهُ أسلافُهم العلماءُ الأعـلام. فكَمْ تركَ الأولُ للآخر!!

إنَّ بابَ التفسير لا يمكنُ أَنْ يُغلق، ولا بدَّ أَنْ يظهرَ في كلِّ جيـلٍ مفسِّرٌ ـ أو أكثرُ ـ لكلامِ الله. ولأهـلِ كلِّ عصرٍ حاجـاتُهم وهمومُهم وقضـايـاهُم ومشكلاتُهم، وسيجدونَ في القرآنِ ما يبحثونَ عنه.

وعلمُ التفسيرِ علمٌ حيٌّ نـامٍ متقـدِّم، ليسَ كبعضِ العلوم الإسـلاميـة «المحتـرقة» التي أُشبِعَتْ بحثـاً، ولا مجالَ لإضـافاتٍ أسـاسيةٍ عليهـا، كعلمِ المواريث وعلم أُصولِ الفقه، وعلمِ أُصولِ النحو، وغيرِ ذلك.

قدَّمْتُ في هذه الرسالـةِ «خمسين» لطيفـة، من لطائفِ القـرآن، وكانتْ هذه اللطائفُ مختلفةً منوَّعة.

بدأْتُها بأربع لطائف حولَ القرآن وترتيبِ سوره: قدَّمْتُ لطيفةً من تسميةِ كـلام الله اسمين: قرآن وكتـاب، ولطيفـةً من ذكْرِ كلمـةِ «قرآن» مضـافـةً لِمـا بعدَها، ولـطيفةً من تـرتيبِ السورِ المفتتحـةِ بالأحـرفِ المقطَّعـة، ولطيفـةً من ترتيبِ السورِ المفتتحةِ بالتسبيح.

ثم قدَّمْتُ تسعَ لطائف حول ظواهرَ تبـدو في بعضِ الحروف القـرآنية، وَصَفْتُ الحـرفَ القرآنيَّ بصفـةٍ أدركْتُها من معنـاهُ وإيحائِـه. تكلمْتُ عن: واوِ الثمـانيـة، لامِ الإخـلاص، لامِ التبليـغ، هـاءِ الـرِّفعـة، هـاءِ الخفض، تـاءِ الخفة، ألفِ العزَّة، ياءِ الذلَّة.

ثم انتقلتُ لكلمـاتٍ قرآنيـةٍ، متقاربـةٍ في الشكلِ والصيـاغةِ والتـركيب والمعنى، ونظرتُ في سياقِها القرآني نظراتٍ نحويةً بلاغيةً ذوقيَّة، وأَردْتُ بيانَ فروقٍ بينها، فقدَّمْتُ لطائفَ سجَّلتُ فيها تلكَ الفروقَ التي لاحظْتُها.

فعلْتُ ذلك لأُقيمَ الدليـلَ ـ الموجَـزَ ـ على عدمِ وُجـودِ «الترادُفِ» في القرآن، وأَنهُ لا بدَّ مِنْ وجودِ فروقٍ بينَ الكلماتِ التي ظنَّهـا آخَرونَ متـرادفة،

ولـو أتعبَ هؤلاء أنْفسَهُم قليلاً، وكَـدّوا ذِهْنَهُمْ قليلاً، لَـلاَحظوا فُـروقـاً دقيقـةً بينها.

وقد تكلَّمَ باحثونَ مدقِّقونَ سابقـون عن هذا المـوضوع، ونفَـوْا الترادفَ عن الكلماتِ القرآنية. وفي مقدمةِ هؤلاء العالمُ القـرآنيُّ الفَذُّ العجيبُ الإمـامُ «الراغبُ الأَصفهاني» الذي كتبَ كتاباً خاصّـاً في الفروقِ بين كلمـاتِ القرآن المتقاربة، ولكنَّ الكتاب لم يصِلْنا، وفُقِدَ في جملةِ ما فُقِدَ مِنْ كُتُبِ التراث.

ومنهم الإمامُ «الحكيمُ الترمـذي» الذي أَلَّفَ رسـالةَ «الفـروقِ في اللفظ ومنْعِ الترادف»، وقد طُبعَتْ في مصر.

وللدكتورة «عائشـة عبد الرحمن» ــ بنت الشاطىء ــ مشـاركةٌ جيـدةٌ في الموضوع، ضمنَ كتابها الطيِّب «الإعجاز البياني للقرآن».

هناكَ كلماتٌ «متضادَّة» في القرآن، وهناك كلماتٌ «مشتركة»، وكلمـاتٌ «متكافئة»، وكلماتٌ «متقاربة»، لكن لا توجَدُ في القرآنِ كلماتٌ «مترادفة».

عرضْتُ خمسَ عشْرةَ لطيفةً حولَ هذهِ الكلماتِ، فرَّقْتُ فيهـا بينَ: ميِّت وميْت، مِصْرَ ومِصْراً، نُكْر ومُنْكَر، نَفِدَ ونَفَذَ، مسُّ ولَمَسَ، كُـرْه وكَرْه، جسْم وجَسَد، ذُنوب وذَنوب، شَرى واشْترى، عَمى وعمه، استأْنَسَ واستأْذَن، فتْيَـة وفتيان، أَمْن وأَمَنَة، رَوْع ورَوْغ، والسِّلْم والسَّلْم والسَّلَم.

ثم عـرضتُ إحدى وعشـرين لطيفـةً حولَ آيـات القرآن، منهـا ما يتعلَّقُ بظاهرةٍ، ومنهـا ما يتعلَّقُ بسيـاقٍ، ومنها مـا يتعلَّقُ بمصطلحٍ، ومنهـا ما يتعلَّقُ بحقيقةٍ أو قاعدةٍ أو دلالة، أو غير ذلك.

وذلـك مثـل: الحكمـة من مجيءِ «المـوت» دائمـاً فـاعِـلاً مؤخَّـراً. واستخدام الهدية بمعنى الرشوة. وتخصيص البركة بالأرض المقدسة. وسيـاق التأليف بين القلوب. وحصر الشكـوى بالله. وجمـع قلبيْن لزوجتي رسـول الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم. ونوني التوكيد المخفَّفـة. وعسى التي لم تتحقق. وكادَ

التي نفيُها إثبات وإثباتُها نفي. ونفي الهمّ عن يوسف عليه السلام. ويُأفكون بمعنى يَكذبون. ويُؤفَكون بمعنى يُعْرِضون. وجعْل مريم من «القانتين». وتذكير فعل «جاءكم المؤمنات». والإيمان المؤكَّدُ الذي لم يتحقق. والإيمان الذي جاءَ تمييزاً. والإيمان بالرسول يسبقُ الإيمانَ له. و «النِّقْمَة» صفةٌ لحرب الكفار ضد المسلمين. وتعليم القرآن للكافرِ الانتحار. وتمثيل عالمِ السوء بالكلبِ والحمار. وتحديد ليلةِ القدر بليلةِ السابع والعشرين من شهرِ رمضان.

وخصَّصْتُ اللطيفةَ «الخمسين» لجولةٍ سريعةٍ مع مصطلحِ «النِّعْمَةِ» في السياق القرآني. لاحظْتُ فيه فروقاً بين اشتقاقاتِ وتصريفاتِ هذا المصطلح، وقدَّمْتُ عدةَ لطائف من ذلك السياق.

أَحببتُ من الجولة السريعة مع مصطلح «النعمة» أَنْ أَضَعَ بين أَيدي القراء نموذَجاً مختَصَراً للتفسيرِ الموضوعي، ذلك التفسيرُ الذي يَتتبَّعُ فيه صاحبُه «مصطلحاً» من مصطلحاتِ القرآن، ومفردةً من مفرداتِه، في السياق القرآني كلِّه، ويلاحِظُ ما في ذلكَ من دلالاتٍ ومعانٍ ولطائفَ ونكاتٍ وحَقائقَ وتوجيهات.

وإنَّ الرحلةَ مع كل مصطلحٍ قرآني، والسياحةَ معه، لشيِّقةٌ ممتعة، يعودُ منها الإنسانُ بزادٍ عظيم، وجنى وفير، وعلم غزير، وفوائدَ نافعة.

وإنني أَنوي ـ بإذنِ الله وعونه وتوفيقِه ـ الارتحالَ مع مفرداتِ القرآن، والسياحةَ مع مصطلحاتِه، والتجوالَ في أسلوبِه وسياقِه، وتقديمَ ما أَجدُه وأتذوَّقُه وأجمعُه من ذلك الجنى القرآني، والفوائدِ التفسيرية، للقرّاءِ الكرام.

وسيكونُ هذا ـ إن شاء الله ـ في سلسلةٍ قادمة، أُخصِّصُها للتفسير الموضوعي في القرآن، وأُفردُ كلَّ مصطلح ـ أَوْ مصطلحاتٍ متقاربة ـ في رسالةٍ خاصة. ومنَ الله أَستمدُّ العونَ والتوفيق.

وإنّنى إذْ أُقدمُ هـذه اللطائفَ للقـراء الكـرام، لأَرجـو منهم أَنْ يتفضّلوا عليَّ بتنبيهي إلى مـا يجدونَـه من ملاحـظات، فـالنقصُ والضعفُ والخـطأُ من صفاتِ البشر.

وإلى الله وحدَهُ أتوجَّهُ بهذا العمـل، وأَرجو منـهُ وحدَهُ الثـوابَ والأجر، وأسألُه سبحانَه أَنْ يجعلَ القرآنَ الكريم ربيعَ قلوبنـا، ونورَ صـدورنا، وذهـابَ همومنا، وجلاءَ أحزاننا، وأَنْ يرزُقَنا تلاوتَه آناءَ الليـل وآناءَ النهـار، وأَنْ يُعَلِّمنا منه ما جهِلْنا، وأَنْ يُذَكِّرَنا منه ما نسينا، وأَنْ يجعلَهُ حجَّةً لنا يوم القيامة.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلَّم.

الدكتور

صلاح عبد الفتاح الخالدي

صويلح ـ ص. ب: ٦٦٩

١٩/٢/١٤١١هـ

٩ /٩/١٩٩٠م

التمهيد

«وجوب تدبُّر القرآن»

وردتْ آياتٌ في القرآن الكريم، تحثُّنا على تدبُّرِ القرآن، والوقوفِ أمامَ آياته وعباراتِه وكلماتِه، واستخراجِ دلالاتِها ولطائفِها ونكاتِها ومعانيها.

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[2].

والتدبُّر هو التفكُّر. وهو مأخوذٌ من «الدُّبْرِ» وهو مؤخَّرُ الشيء.

قال ابن فارس في «معجم مقاييس اللغة»: «دُبُرُ الشيء: هو آخِرُه وخَلْفُه، بخلافِ قُبُلِه»[3].

وكأنَّ الناظرَ في آياتِ القرآن يُعْمِلُ عقلَه وفكرَه فيها، ويلاحظُ أواخرَ معاني كلماتِها، أي المعاني الخفيَّة، واللطائفَ الدقيقة، والنكاتَ اللطيفة، التي لا يُلاحظها الإنسانُ العاديّ.

وقد أشار قولُه: ﴿أَمْ عَلى قُلوبٍ أَقْفالُها﴾ إلى العوائقِ التي تحولُ بين الإنسانِ وبينَ تدبُّر القرآن، وهي الأقفالُ على القلوب.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٩.

(٢) سورة محمد: الآية ٢٤.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ٢/٣٢٤.

إنها أَقفالٌ عديدة، وهي خـاصَّةٌ بتلك القلوب ـ لأنهـا أُضيفتْ إليها ـ، وكأنَّها جاءتْ على قَدَرها ومَقاسها!

وهـذه الأقفالُ ليستْ أقفـالاً حديـديَّة محسـوسَة، بـل هي أقفالٌ معنـويةٌ مكتَسَبَـة. إنَّها المعـاصي والمنكـراتُ والفـواحشُ والشهـوات، التي يقتـرفُهـا الإنسـان، فتُنْكَتُ في قلبه نُكَتٌ سـوداء، وكأنَّ كـلَّ واحدةٍ قفـلٌ على القلب. وتُزادُ الأقفالُ والنُّكَت السوداء بازديادِ المعاصي والمنكـرات. حتى تغطِّي على ذلك القلب البائسِ المسكين، فتُغلقُه، وتطمس له نورَه، وتُظْلم عليه حيـاته. وبذلك يُحْرَم من الخيرِ العميم، ويُحال بينه وبين تدبُّر القرآن.

* * *

«القـرآن مبـارك»

وصفَ اللّهُ القـرآنَ الكـريم وصْفـاً ذا دلالـةٍ بيِّنـةٍ على طبيعتِـه. وصَفَـه بالبركة، وذلكَ في مثلِ قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾[1].

والبَرَكةُ هي الزيادةُ والنماء، والسَّعةُ والشمول والاستيعاب. قال الراغبُ الأصفهاني عن هذا المصطلح: «البَرَكةِ: ثبوتُ الخير الإلٓهي في الشيء. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2]. والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخير. وعلى ذلك قولُه تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾[3]، تنبيهاً على ما يفيضُ عليه من الخيراتِ الإلٓهية»[4].

القـرآنُ كلُّه خير وبَـرَكة، يفيضُ من ذلـك على قارئِـه ومتدبِّـره في كـلِّ لحظة. واتِّباعُ هذا الذكرِ المبارَك اتِّباعاً راشداً بصيراً، والتزامُ توجيهـاتِه عمليّـاً سبيلٌ لنيلِ رحمةِ الله، التي لا غِنى لإنسانٍ عنها.

ويمكننا أنْ نقفَ على بعضِ مظاهرِ البرَكة في القرآن، عندما ننظرُ في قوله تعالى: ﴿وَهٰذا كِتابٌ أَنْزَلْناه مُبارَكٌ﴾ من خلالِ القاعدةِ الأساسية في تدبُّر

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٥.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٩٦.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥٠.

(٤) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٤٤.

القرآن، وهي «حَذْفُ المَعْمولِ يُفيدُ العُموم» ـ أيْ عدمُ تقييدِ الكلمةِ القرآنيةِ المطلَقة بـأيِّ معنًى من معانِيهـا الجزئيـة، يدلُّ على دُخـول كلِّ تلكَ المعـاني فيها، وكونِها مقصودةً فيها ـ.

القرآنُ مبارَك، بكلِّ صُوَرِ البَرَكة ومظاهِرِها ومعانيها ومجالاتِها وألوانِهـا، مبارَكٌ بكلِّ ما تحملُه كلمةُ «البركة» من دلالاتٍ وجزئيّات.

إنـه مبـارَكٌ في أَصْله ومصـدره لأنـه من عنـدِ الله. ومبـارَكٌ في حـامِله ـ جبريل عليه السلام ـ، ومبارَكٌ في محلِّه ـ قلبِ رسول الله صلَّى اللَّه عليـه وسلَّم ـ، ومبارَكٌ في حجمه، ومبارَك في تلاوتِه، ومبارَك في علومه ومعارفـه، ومبـارَك في معانيـه ودلالاته، ومبـارَك في آثارِه الحـركية، ومبـارَك في أهدافِـه الواقعية. . .

* * *

«لا يشبع منه العلماء . . . ولا تنقضي عجائبه»

وصفَ أميرُ المؤمنين عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ القرآنَ الكريمَ أوْصافاً لطيفة، ذاتِ دلالاتٍ هامَّة ـ وهو مِنْ أعرفِ الصحابة بالقرآن ـ.

روى الترمذيُّ عن الحارثِ الأعْوَرِ ـ رحمه الله ـ قال: دخلتُ المسجدَ ـ يعني في الكوفةِ في خلافة عليّ ـ فإذا الناسُ يخوضون في الأحاديث. فدخلتُ فأخبرتُه ـ يعني عليَّ بنَ أبي طالب ـ فقال: أوَقَدْ فعلوها؟ قلتُ: نعم! قال: إني سمعتُ رسولَ الله ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ يقول: ألا إنها ستكون فتنة. قلتُ: فما المخرجُ منها؟ قال: كتابُ الله . فيه نبأُ ما قَبلَكُم، وخبرُ ما بعدَكم، وحكْمُ ما بينَكُم. هو الفصلُ ليس بالهزْل. من تركَهُ مِنْ جبّار قصمَه الله، ومن ابتغى الهُدى في غيرِه أضلَّه الله. وهو حبلُ الله المتين. وهو الذكرُ الحكيم. وهو الصراطُ المستقيم. وهو الذي لا تزيغُ به الأهواء، ولا تلتبسُ به الألسنة، ولا يشبعُ منه العلماء، ولا يَخْلُق ـ أي لا يَبْلى ـ عن كثرةِ الردِّ، ولا تنقضي عجائبُه. وهو الذي لم تَنْتَهِ الجنُّ إذْ سمعتْه حتى قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾[1].

مَنْ قالَ به صَدَق، ومن عَمِل به أُجِر، ومن حَكَم به عَدَل، ومن دَعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيم[2].

(١) سورة الجن: الآيتان ١، ٢.

(٢) سنن الترمذي: (٤٢) أبواب فضائل القرآن، (١٥) باب: ما جاء في تعليم القرآن، حديث: ٣٠٧١.

وقد ضعَّفَ العلماءُ هـذا الحديثَ، بـل ضعَّفَه راويـه الإمامُ التـرمذي، حيث يقـولُ: «هذا حـديثٌ غريب، لا نعـرفهُ إلاَّ من حـديثِ حمزة الـزيّات، وإسنادُه مجهول، وفي الحارث مَقال»[1].

والصحيحُ وَقْفُهُ على عليٍّ بن أبـي طـالب، وجعْلُه من كـلامِـه هـو. ولذلكَ قالَ الإمامُ ابنُ كثير في «فضائلِ القرآن» ــ الملحقِ بالجزءِ الـرابعِ من تفسيـره ــ: «وَقُصَارىَ هـذا الحديث أنْ يكـونَ من كـلامِ أميـرِ المؤمنين عليٍّ ــ رضي الله عنه ــ وقد وَهِمَ بعضُهم في رفعه، وهو كلامٌ حسنٌ صحيح»[2].

وندعو القـارىءَ إلى أنْ يُمْعِنَ النظرَ في صفـاتِ القرآن المـذكورة، وأَنْ يلحظَ أبعادَها الواقعية، وأنْ يعيشَها وهو يتلو القرآنَ ويحفظُه ويتدبَّرُه.

القـرآنُ الكريمُ لا يشبـعُ منه العلمـاء! والتاريـخُ الإسلاميُّ شاهدٌ على صـدقِ هذه الحقيقـة. فما من فتـرةٍ في تاريخِنـا الإسلامي، في أيِّ بقعـةٍ من بقاعِ العالم الإسلامي، إلاَّ وبرزَ فيها عالمٌ من علماءِ القرآن ومتدبِّريه.

وإنَّ المكتبةَ القرآنية لدليلٌ على صدْقِ هذه الحقيقةِ أيضـاً حيثُ زَخَرَتْ بالكتبِ المختلفة التي تبحثُ في علومِ القرآن وأسلوبِه، وتعرضُ بعضَ معانيه ودلالاته.

وإذا نـظرْنـا في حـيـاةِ أيِّ عـالم من علمـاءِ القـرآن ــ مثـل الـطبـري والزمخشري والرازي ورشيد رضا وسيد قـطب ــ فسنجدُ صـدقَ هذه الحقيقـة كذلك حيثُ كانَ العالم منهم يتدبَّرُ القرآن وينظرُ فيه مرّاتٍ ومـرات، ولا يَمَـلُّ النظرَ والتدبُّر. أو بمعنى آخر: لا يَشْبعُ منه.

ولا يتصفُ بهـذه الصفـة إلاَّ كتـابُ الله، ولا تتحقَّقُ هـذه المـزيَّـة إلاَّ لكلامِ الله.

(١) سنن الترمذي ــ بتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ــ: ٤/٢٤٦.

(٢) فضائل القرآن لابن كثير: ص ٥.

أما كتبُ البشر ومؤلَّفاتُهم، فإن الإنسـانَ قد يجـدُ فيها شـوقاً ولـذَّة لدى قراءتِها أوَّلَ مرة. وقدْ يعودُ لقراءةِ الكتاب مرةً ثانية أو ثالثة. لكنْ بـرغبةٍ أقـل، وإذا اضطُرَّ إلى قراءةٍ أُخرى. فقد تكونُ على حسابِ أعصابه!

إنَّ عجائبَ القرآن ودلالاتِه وكنوزَه ولـطائفَه، لا تنقضي ولا تنفـدُ، على اختلافِ الزمانِ والمكان والأشخاص.

العلماءُ ـ في كل زمان ـ يُضيفونَ إلى دلالاتِ ومعاني ولطائفِ القـرآن الجديدَ المفيدَ. وعندما يسجِّلُ العالمُ بعضَ لطائفِ ومعاني الآيات، ثم يعـودُ إليها مرةً ثانية، فإنه يجدُ فيها الجديدَ المفيد.

وصدقَ عليٌّ بنُ أبي طالب حيث يقول عنه: إنه لا يشبعُ منـه العلماء، ولا تنقضي عجائبُه!

* * *

«كم ترك الأول للآخر!»

يحاولُ بعضُ الدّارسين المعاصرينَ أَنْ يَقْصُرَ فهْمَ القرآن وتدبُّرَه وتفسيرَه على السابقين، وأَنْ يحدِّدَ التفاسيرَ والدراساتِ القرآنية النافعة، بتلكَ المؤلَّفةِ في القرون الأولى، لأن العلماءَ السابقين ـ في ظنِّهم ـ قد استقصَوْا علومَ القرآن ومعارفَه ولطائفَه، ولأنَّ تفاسيرهم ودراساتِهم حَوَتْ تلكَ العلومَ القرآنية، ولم تُنْقِصْ منها شيئاً!!

وقد أطلقَ هؤلاء قوْلاً، جعلوهُ قاعدةً عامة في تقويمِ دراساتِ المعاصرين، أعدموها به، وهو قولُهم: «ما تَرَكَ الأَوَّلُ للآخر!».

وينفُونَ بهذا القولِ إمكانيةَ إضافةِ أحدٍ من المعاصرين، لأنَّ السابقين لم يتركوا له شيئاً من معاني ودلالاتِ ولطائفِ القرآن.

ولذلكَ لا يُجيزُ أحدُ هؤلاء لنفسِه أن يقرأ دراسةً قرآنية لأحدِ المعاصرين، وإذا سُئِلَ عن هذه الدراساتِ انتقَصها وردَّها، ونصحَ بعدم تضييعِ الوقتِ في قراءتِها، وجهَّلَ أصحابَها، واتَّهمهُم في علمهم وأصالتهم... واعتبرَهم مجردَ «ناقلين» لعلمِ وكلامِ السابقين.

وهؤلاء ظالمونَ للسابقين في هذه النظرة ـ مثل ما أنهم ظالمون للمعاصرين ـ.

إننا نحترمُ علماءَنا السابقين ونحبُّهم، ونُقَدِّر علمَهم الأصيلَ الغزير، ونعترفُ بأن من أولئك الأعلام من وهبَهُ اللَّهُ الكثيرَ من العلم والمعرفة. وأنه في دراستِه عرضَ جوانبَ جديدةً مفيدةً من العلم والمعرفة....

كمْ نُقَدِّرُ علماءَ أعلاماً في التفسيرِ وعلوم القرآن، من أمثالِ الطبري والزمخشري والراغب الأصفهاني والرازي.

لكنَّنا نعتقدُ أنَّ مِنَ المتأخرين المعاصرين مَنْ وجدوا أمامَهم مجالاتٍ فريدةً أصيلةً، للبحثِ في عالم القرآن وعلومه ومعانيه، وأنهمْ قد وقفوا على لطائفَ وعجائبَ ودلالاتٍ قرآنية جديدة ـ لم يلحظْها السابقون ولم يعرضوها ـ فعَرَضوها في دراساتِهم القرآنية، وصارُوا بها ذَوي أَصالةٍ وريادة...

لذلكَ يجبَ علينا أن نُصَحِّحَ المقولةَ الخاطئة «ما تَرَكَ الأوَّلُ للآخر!». نُصَحِّحُها بوضعِ «كَمْ» الخبريَّةِ التكثيريَّة، مكانَ «ما» النافية. فنقول: «كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخر»، أيْ تركَ الأَوَّلون للآخِرين الكثيرَ الكثيرَ من معاني القرآن ودلالاته ولطائفه.

بلْ إننا نقرِّرُ أنَّ بعضَ المعاصرين كان أَنفذَ بَصَراً، وأَعمقَ بَحْثاً، وأَغزرَ عِلْماً، وأَحسنَ عَرْضاً، من بعضِ السابقين.

كم نخسرُ عندما نُلغي نتاجَ المعاصرين النافع. كم نخسرُ لو أَغْفلْنا ـ أَوْ أعْدَمْنا ـ تفاسيرَ معاصرة، مثل تفسيرِ «المنار» لرشيد رضا، أو «في ظلال القرآن» لسيد قطب، أو «صفوة الآثار والمفاهيم» لعبد الرحمن الدوسري. كم نخسرُ لوْ أهمَلْنا كتبَ العالمِ الفقيه الدكتور محمد عبد الله دراز مثلاً.

إنَّ قيمةَ الكتاب ليستْ في قدَمِه، بل في تفرُّدِه وأَصالته وإضافاته. وإنَّ علمَ العالِم لا يكمُنُ في أسبقيَّتِه الزمنية، بل في عودتِه إلى «معين» علمِ السلف الصالح، وموافقتِه للحق، وتجاوُزِه للنقل والتقليد.

... و«كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ لِلآخِرِ!»...

* * *

«باب التفسير لا يُغلق»

هناكَ بدهيَّةٌ يقينيَّة، نـرى من المناسبِ الإشـارةَ إليها في هـذا المقام، وهي تتعلَّقُ بتفسيرِ القرآن وضرورتِه لكل عصر.

إنَّ باب التفسير لا يمكنُ أنْ يُغْلَق، وإنَّ مددَ التفسيرِ لا يمكنُ أنْ ينفَد، وإنَّ مادةَ التفسير لا بدَّ أَنْ تتجدَّد.

بعضُ العلومِ العربية والإسلامية نضجتْ، ولا تقبلُ إضافـةً على أُسُسِها وقواعدِهـا، ويسمّيها بعضُهم «علومـاً محترقـة»، وذلك مثـلُ علمِ «النحو» في اللغـة، وعلمِ «أصول الفقـه» وعلمِ «أصول الحـديث»، فـإذا أرادَ كـاتبٌ أن يكتبَ في هـذه العلوم، فلنْ يقـدِرَ على الإتيـانِ بقـواعِـدَ وأسسٍ ومـوازين جـديدة، لأنهـا أُقِرَّتْ وانتهت، وستكـونُ كتـابتُـه بتنـويـعِ الأمثلة والنمـاذج، أو ترتيبِ المسائل وتنظيمِها، أو شرحِها، أو اختصارِها.

وبعضُ العلومِ العـربيةِ الإسـلامية، حيَّـةٌ ناميَـة، وتقبـلُ إضـافـاتٍ من مُبْدعين، ويسمّيها بعضُهم «علومـاً حية»، وذلـكَ مثلُ «علمِ التفسيـر وأصولـه وقواعده»، و «علمِ الحديث» وعلمِ «البلاغة والأدب».

لا يستغني المسلمـونَ في أيِّ عصرٍ عن تَفسيـر ـ أو تفاسيـر ـ بـأقـلامِ علماءِ يعيشون عصرَهم بحضورٍ فاعل، ونـظرةٍ إيمانيـة، وحركـةٍ واقعيةٍ جـديَّة بإيمانهم وقرآنهم.

لا بـد في كل عصـرٍ من تفسيـرٍ يعـالـجُ مشكـلاتِ المسلمين في ذلـك

العصر، ويلبِّي حاجاتِهم، ويقدِّمُ لهم الحلولَ القرآنية الناجعة، والدواءَ القرآنيَّ الشافي.

لا بدَّ من علماءَ يفسِّرونَ القرآن بلغةِ عصرهم، وأسلوبِ عصرهم، وطريقةِ عصرهم.

إننا لسْنا مقيَّدين بنظرةِ مفسِّرينَ سابقين لمشكلاتِ عصرهم ـ لأنَّنا قدْ لا نُعانيها في عصرِنا ـ كما أننا لسْنا مقيَّدين بنقضِ مفسرينَ سابقين لمذاهبَ ومناهجَ باطلةٍ في عصرهم، ولا بنقاشِهم وجدالِهم لأصحابِ تلك المذاهب، لأنَّها غيرُ موجودةٍ في عصرِنا، ولوجودِ مذاهبَ جديدةٍ معاصرة، تحتاجُ إلى نقض.

ماذا نستفيدُ نحنُ من نقضِ الإمام الرازي في تفسيرهِ لأفكارِ المعتزلة، وجدالِه لزعماءِ المعتزلة؟ وماذا نستفيدُ من نقضِ الإمام ابن تيمية في «دقائقِ التفسير» ـ وسائرِ كتبه الفكريةِ الأخرى ـ لأفكارِ الجبريةِ والجهميةِ والمعطِّلة والمرجئةِ وغيرهم؟

إنَّنا بحاجةٍ إلى مَنْ ينقضُ لنا ـ من خلالِ تفسيره ـ مذاهبَ فكريةً معاصرة، مثل الماركسيَّة والوجوديَّة والماسونيَّة والقوميَّة، كما فعلَ الإمامُ رشيد رضا في «المنار» والشهيد سيد قطب في «الظلال».

لسْنا مقيَّدينَ إلاَّ بالطريقةِ المثلى في التفسير، التي قرَّررها علماء السلف. وهي تفسيرُ القرآنِ بالقرآن، ثم تفسيرُه بالسنَّة الصحيحة، ثم بأقوالِ الصحابة الكرام.

لكلِّ مفسِّرٍ أهدافُه ومنهجُه وخطته وطريقتُه وأسلوبُه، بما يتفقُ مع حاجاتِ وقضايا ومشكلاتِ واهتماماتِ المسلمين في عصره.

برزَ مفسِّرون سابقون، وكتبُوا تفاسيرَ عظيمة رائدة، وبقيَ الناس في عصورٍ لاحقة بحاجةٍ إلى تفاسيرَ جديدة.

وبرزَ في عصرِنا مفسِّرون أعلام، كتبوا تفاسيرَ عظيمة رائدة، قدَّموا فيها الجديدَ والمفيد.

وسيظهرُ في الأجيالِ القادمة مفسِّرون آخَرون، يُضيفونَ معانٍ ودلالاتٍ ولطائفَ جديدة!

وما ذلكَ إلَّا لأنَّ «التفسيرَ» علمٌ حيٌّ نامٍ، وأنَّ «بابَ التفسير لا يُغْلَق!»...

* * *

«التفسـير فتوحـات»

اختلفَ بعضُ السّابقين في جوازِ التفسيرِ بالرأي.

فقالَ قومٌ بجوازِه مطلَقاً، وأدخلوا فيه الـرأيَ المحمودَ المقبـول، والرأيَ المذمومَ المرفوض.

ووقفَ آخَـرون على النقيضِ من ذلك، فمنعُـوا التفسيرَ بـالرأيِ مهمـا كان، واعتبروهُ من بابِ القولِ في القرآنِ بدون علم.

ووقفَ علماءُ آخَرون موقفاً متَّزناً وسَطاً، فمنعُوا التفسيرَ بالرأيِ المذموم وحارَبوه، وأجازُوا التفسيرَ بالرأيِ المحمودِ المتَّزن، ووضَعوا ضوابطَ وشُـروطاً لقبولِ ذلك التفسير.

ولقد طوى الزمنُ هذا الخلافَ، واستقرَّ العلمـاءُ المحقِّقونَ على جـوازِ التفسيرِ بالرأي المحمودِ الملتزمِ بالضوابط المتَّفق مع القواعد.

ليس كـلُّ التفسيرِ تفسيـراً نقليّاً بـالمأثـور، والمفسِّـرُ البصيـر يقفُ على التفسيـرِ النقلي، ويطَّلِعُ على الـرواياتِ المـأثورة، وينـطلقُ من ذلـكَ ليسجِّلَ ما يستخرجُه من دلالاتٍ ولطائفَ وإيحاءات.

إنَّ معظمَ نتاجِ الدَّارسين المتـأخِّـرين للقرآن، نـاتجٌ عن نـظَراتِهم حولَ آياتِ القرآن، وتدبُّرِهم لها.

ولـذلـكَ تُعتبـرُ تلكَ النـظراتُ الصـائِبـة، والتحليـلاتُ الصـادقـة، والاستنتاجاتُ الصحيحة، «فتوحاتٍ» فتحَ اللّهُ بها على أصحابها.

التفسيرُ فتوحـاتٌ. والمهمُّ هوَ أن يلتـزمَ المتدبِّـرُ للقرآن بـالضوابطِ التي قرَّرها علماءُ التفسير، وأنْ يـراعيَ الآدابَ التي بيَّنوهـا. وهو مـطالَبٌ أنْ يُقبلَ على ربه إقبالاً خاصاً، يستمدُّ منه العـونَ والتوفيق، ويسـألُه أنْ يفتـحَ عليه من أبوابِ رحمته فتوحات، يفهمَ بها معاني الآيات.

ومـا سألَ اللّهَ ذلـك عالمٌ عـابدٌ إلاَّ أمـدَّه بـالفتـوحـات، وأفـاضَ عليـه الفيوضات! ومـا أحسنَ عالمٌ التـوكلَ عليـه إلاَّ منحهُ العلم، ووفَّقـه للصواب، وكتبَ له الأجرَ، ولعلمِه الذيوعَ والانتشار!

* * *

لطائف قرآنية

[١]
«اسمان لكلام الله: قرآن، وكتاب»

سمَّى اللَّهُ سبحانَه كلامَه الكريم المنزَّل على محمد ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ اسميْن، ذَوَيْ دلالةٍ خاصةٍ على طبيعتِه.

سمّاهُ الله «قُرْآناً»: في مثلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾(١).

وسمّاه اللَّهُ «كتاباً»: في مثلِ قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾(٢).

وجمعَ بينَ الاسْمين، في مثلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾(٣).

«حفظ القرآن بالقراءة والكتابة»

وهناكَ حِكَمٌ تبدو لنا من إطلاقِ هذين الاسْمين على كلامِ الله، منها:

١ ـ أنَّ هـذينِ الاسْمين من مـظاهِـر حفظِ اللَّهِ لكـلامِـه من التحـريفِ والتبديل، بحفظِهما عن طريقِ القراءة والكتابة.

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) سورة البقرة: الآيتان ١، ٢.

(٣) سورة الواقعة: الآيات ٧٧ ـ ٧٩.

٢ ــ أنَّ هــذينِ الاسمينِ نمـوذَجـان لأهمِّ وسـائــلِ حفظِ الـوثـائق والنصوص.

فَمَنْ أرادَ حفظَ نصٍّ، فـإنه يقـرأُهُ أوَّلاً ويحفظُه غيْبـاً، ثم يكتُبه ويسجِّلُه فإذا نسيهُ عادَ إلى ورقته.

والقرآنُ أهمُّ وأسمى وثيقةٍ لـلأمَّة الإسـلامية. ولقـدْ ألهَمَ اللَّهُ الصحابـةَ استخدامَ هاتيْن الوسيلتيْن: القراءةِ والكتابة.

وكانَ القرآنَ محفوظاً من قِبَلِ كثيرٍ من الصحابة، كما كانَ مكتـوباً على أدَواتِ الكتابة في حياةِ رسول الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم.

واستمـرَّ المسلمونَ على هـذهِ الـطريقـة، ولازمَتْ الـوسيلَتـان: القـراءةُ والكتابةُ، كتابة المصحفِ وطبعه ونشره.

ويحـاكَمُ المحفوظُ إلى المكتـوب، فعندمـا يقرأُ الحـافظ القرآن، ينظرُ المتابعُ له في المصحف.

كما يحاكَمُ المكتوبُ إلى المحفوظ، فـإذا طُبِعَتْ طبعةٌ من المصحف، سُلِّمت النسخةُ لعالمٍ حافظٍ ليدقِّقُها وينظرَ فيها...

لا يُعْتَمدُ المقروءُ ما لم يكن مُوافِقـاً للمكتوب، ولا يُعتَمـدُ المكتوبُ إلَّا إذَا كُتِبَ وَفْق المقروءِ المحفوظ.

ولم تتـوفَّرْ هـاتان الـوسيلتان ــ القـراءة والكتـابـة ــ لأيِّ كتـابٍ أو نصٍّ أو وثيقةٍ في التاريخ البشريِّ كلِّه، كما توفَّرتْ للقرآنِ الكريم.

«القراءة والكتابة جمع للقرآن»

٣ ـ كلُّ وسيلةٍ منهما ـ القراءة والكتابة ـ جَمْعٌ للقرآنِ في صورةٍ من الصور.

فالقراءةُ: مشتقَّةٌ من «القَرْءِ» والقَرْءُ هو الجمعُ والضمُّ. قال ابنُ فارس في «المعجم»: «قَرَى: أَصْلٌ صحيحٌ يدُلُّ على جمعٍ واجتماع»[١]. ثم قال: «وَإذا هُمِزَ هذا الباب ـ أي قيل «قَرْءٌ» ـ كانَ هوَ والأوَّلُ سواءً»[٢].

وهذا الجمعُ والضمُّ ملحوظٌ في القرآن. فالقارىءُ عندما يتلو آياتٍ من القرآن، فإنه يجمعُ كلماتِ الآية، ويضمُّ حروفَها، ويُخرجُها من فمِه مجموعةً مضمومة.

فالقراءةُ والتلاوةُ جمعٌ صَوْتِيٌّ لحروفِ وكلماتِ القرآن.

والكتابةُ: مشتقةٌ من «الكَتْبِ»، والكَتْبُ هو الجمعُ والضمُّ. قال ابنُ فارس في «المعجم»: «الكَتْبُ: أَصْلٌ صحيحٌ واحدٌ يدُلُّ على جمعِ شيءٍ إلى شيء»[٣].

وهذا المعنى ملحوظٌ في كتابةِ الآيات. الكاتبُ عندما يكتبُ الآيةَ على الورقة، فإنه يَجْمعُ حروفَ الكلمة، وكلماتِ الجملة بعضَها إلى بعض، يجمعُها بالقلمِ على السَّطر.

فالكتابَةُ جمعٌ حسِّيٌّ للحروفِ والكلماتِ القرآنية على السُّطورِ.

وسبحانَ اللَّهِ الحكيمِ الذي اختارَ هذيْنِ الاسْمين لكلامه الكريم المنزَّلِ على رسول الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم.

* * *

(١) معجم مقاييس اللغة: ٧٨/٥.

(٢) المرجع السابق: ٧٩/٥.

(٣) المرجع السابق: ١٥٨/٥.

[٢]
«قرآن» مضافة لما بعدها

«قرآن الفجر . . . وقرآنه . . .»

وردتْ كلمةُ «قرآن» مطلقةً مراتٍ عديدة في كتاب الله، وجاءتْ على استعمالاتٍ مختلفة، فهي أحياناً مرفوعة، وأحياناً منصوبة، وأحياناً مجرورة، وأحياناً معرَّفةً بأل التعريف، وأحياناً منَكَّرة.

وكانَ يُقْصَدُ بهذه الكلمة في هذه الحالات والاستعمالات، القرآنَ الكريم نفسه، كلام الله المنزَّل على رسولِ الله محمد ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ المتعبَّدُ بتلاوته.

لكنَّ الذي استوقَفَنا هو ورودُ كلمة «قرآن» مضافةً لما بعدها، حيثُ جاءَ بعدَها مضافٌ إليه ـ إمَّا اسمٌ ظاهر أو ضمير ـ.

واللطيفُ أنها في هذه الحالة لم تُطْلَق على كلامِ الله نفسه!

ننظرُ في الآياتِ التي وردَتْ فيها كلمةُ «قرآن» مضافةً لما بعدها:

وردتْ بهذه الصورة في سورتيْن. وذُكرتْ في كلِّ سورة مرتيْن، فيكونُ مجموعُ ورودِها أربعَ مرات.

«قرآن الفجر: قراءة القرآن في الفجر»

١ ـ قال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[١].

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٨.

في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى مواقيتِ الصلواتِ الخمس:

فما بينَ دُلوكِ الشمس ــ وهو زوالُها للجهةِ الثانية من السماء وقتَ الظهيرةِ ــ إلى غسقِ الليل صلاتان. وهُما الظهرُ والعصر.

وما بينَ غَسَقِ الليل إلى قرآنِ الفجر صلاتان، وهما: المغربُ والعشاء.

وقرآنُ الفجر في صلاةِ الفجر.

وليسَ المراد بقولِه «قرآنُ الفجر» القرآنَ نفسه، بل المرادُ به قراءةُ القرآن في صلاةِ الفجر.

قرآنُ الفجر كانَ مشهوداً، أيْ قراءةُ القرآن في صلاةِ الفجرِ مشهودة، تحضُرها الملائكةُ وتسمعُها وتشهدُها وتشهدُ لأصحابها.

أخبرَنا رسولُ الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم عن حضورِ الملائكة وشهودِها وشهادتِها: فقدْ روى الإمامُ مسلم ــ وغيرُه ــ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قال: «يَتعاقَبونَ فيكُمْ، مَلائِكَةٌ باللَّيْل، وَملائِكَةٌ بِالنَّهار، وَيَجْتَمِعون في صلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ العَصْر، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذينَ باتوا فيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وهوَ أَعْلَمُ بِهِم: كَيْفَ تَرَكْتُم عِبادي؟ فيقولون: تَرَكْناهُمْ وَهُمْ يُصَلّونَ، وَأَتَيْناهُمْ وَهُمْ يُصَلّون»(1).

«قرآنه: قراءته»

٢ ــ قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾(2).

---

(1) صحيح مسلم: (٥) كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (٣٧) باب فضل صلاتي الصبح والعصر، حديث رقم: ٦٣٢.

(2) سورة القيامة: الآيات ١٦ ــ ١٩.

وردتْ كلمةُ «قرآن» هنا مرتيْن، مضافةً إلى الضميرِ الغائبِ «الهاء».

ولا يُـرادُ بها هنـا كلامُ الله بـل قراءةُ وتـلاوةُ كـلامِ الله على رسـول الله صلّى اللّه عليه وسلّم.

فقـدْ كانَ رسـولُ الله صلّى اللّه عليـه وسلّم يخشى أَنْ ينسى آيـات من القرآن، عندما ينزلُ عليـه جبريـل عليه السـلام، لأنه أمّيٌّ لا يقـرأ ولا يكتب. فكانَ يُعاني من ذلك ما يُعاني، حيث كان يردِّدُ خلفَ جبريلَ الكلماتِ القرآنية التي أَعطاه إيّاها، ويحرِّكُ لسانَه بها، بصعوبةٍ ومشقّة. فنهَتْهُ الآياتُ التي أمامَنا عن ذلك، وطمْأَنَتْـه بأنَّ اللّهَ سيجعلُه يحفـظُها من أوّلِ مـرة، وما عليـه إلّا أنْ يبلِّغَها للناس.

ولذلكَ جـاء معنى هذه الآيـات: لا تُحرِّكْ بـه لسانَـكَ لتعجلَ بحفـظه، ولا تردِّدْه وراءَ جبريل بصعوبـة، لأنَّ علينا جمعَـه وقراءتَـه عليك، فـإذا قرأنـاه عليك فاتَّبِعْ قراءَتَنا له.

والخـلاصةُ: أنَّ كلمـةَ «قرآن» إذا أُضيفَتْ إلى ما بعدهـا، لا يُـرادُ بهـا كلامُ الله نفسه «القـرآن الكريم»، بـل يُرادُ بهـا قراءةُ وتـلاوة كلامِ الله. وهـذا الاستعمالُ محصورٌ في أربعةِ مواضعَ في القرآن.

مرّتان في سـورةِ الإسراء «قـرآنَ الفجر»: أيْ: قـراءةُ القرآن في صـلاة الفجر.

ومرّتان في سورة القيامـة «قرآنَـه»: أي: قراءةُ القـرآن عليك. وهي في المرّاتِ الأربعِ منصوبة.

* * *

[٣]

«ترتيب السور المفتتحة بالأحرف المقطعة»

«الأحرف المقطعة للتحدي والإعجاز»

الأحرفُ المقطَّعة، التي افتتحتْ بها بعضُ السور القرآنية، للتحدّي والمعاجَزة والإعجاز، وللإشارةِ إلى مصدر القرآن، وأنهُ كلامُ الله، حيثُ يضعُ بينَ أيدي الكافرينَ المنكرينَ المادَّةَ الأوَّلية، لصياغةِ وتركيبِ الكلامِ العربي، وهي الحروف. وكأنَّه يقولُ لهم: القرآنُ كلامٌ عربيٌّ مبين، وأنتمْ تتكلمونَ اللغةَ العربية، فإنْ كنتم في شكٍّ من أنه كلامُ الله، فها هي الأحرفُ المقطَّعة ـ المادةُ الأوليةُ للكلماتِ القرآنية ـ فصوغوا منها كلاماً مثلَ القرآن في الفصاحةِ والبلاغةِ والبيان، فإنْ عجزتُمْ فاعلموا أنه كلامُ الله[١].

«أدلـة ذلـك»

ومما يرجِّحُ هذا الفهمَ للحروفِ المقطعة ـ الذي قالَ به المحقِّقون من العلماء ـ ما يلي:

١ ـ عددُ الحروفِ المقطَّعة في أوائلِ السور ـ بدون المكرَّر ـ أربعةَ عشرَ حرفاً. وهو نصفُ عددِ حروفِ الهجاء العربية. وكأنَّ القرآن يضعُ بين أيديهم نصفَ الأحرف الأوَّلية، ويطالبُهم بالإتيان بالنصفِ الثاني!

---

(١) انظر ـ إن شئت ـ كلامنا عن «سر الحرف» أثناء كلامنا عن «الإعجاز البياني» في كتابنا «البيان في إعجاز القرآن».

٢ ـ جُمعتْ تلكَ الحروف المستعملةُ في جملةٍ لطيفة ذاتِ دلالة، وهي: «نَصٌّ حَكيمٌ قاطعٌ لهُ سِرٌّ».

٣ ـ عددُ السورِ المفتتحَةِ بهذه الأحرفِ تسعٌ وعشرونَ سورة، على عددِ حروفِ الهجاء العربية ـ بزيادةِ حرف «لا» كما يقولُ علماءُ اللغة ـ.

«ترتيب مقصود لتلك السور في القرآن»

وعندما ننظرُ في السورِ المفتتحةِ بالأحرفِ المقطّعة، فإننا نجدُها كما يلي:

السورُ المفتتحةُ بحرفٍ واحد ثلاث. والسورُ المفتَتَحةُ بحرفين تسع. والسورُ المفتتحَةُ بثلاثةِ أحرف ثلاث عشرة. والسورُ المفتَتَحَةُ بأربعةِ أحرف اثنتان. والسورُ المفتتحةُ بخمسةِ أحرف اثنتان.

والمهمُّ هنا أن نشيرَ إلى هذه اللطيفةِ القرآنية الرائعة:

هذه السور مرتَّبَةٌ ترتيباً ملحوظاً مقصوداً:

(أ) السورُ المفتَتَحةُ بأحرفِ «ألم» مرتبةٌ متسلسلةٌ في المصحف، وذلك في مجموعتَيْن:

المجموعةُ الأولى: سورتان متواليتان: البقرة وآل عمران.

المجموعةُ الثانية: أربعُ سور متوالية: العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة.

(ب) السورُ المفتَتَحَةُ بأحرفِ «ألر» ستُّ سورٍ، متواليةٌ في المصحف. وهي: يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر.

(ج) مجموعةُ «الطواسين» ـ وهي السورُ المفتتحةُ بأحرفِ «طس» أو «طسم» ـ ثلاثُ سور، متواليةٌ في المصحف. وهي: الشعراء، النمل، القصص.

(د) مجموعةُ «الحـواميم» ـ وهي السورُ المفتتحـة بِحَـرْفَيْ «حم» ـ سبـعُ سـورٍ، متـواليـةٌ في المصحف. وهي: غـافـر، فصلت، الشـورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

فهل ورودُ هذه السـور في المصحف بهذا التـرتيبِ والتتابـعِ مصادفـة؟ كـلا! إن هذا دليـلٌ بيِّنٌ يُضافُ لـلأدلّـة الأخـرى على إعجـاز القـرآن، وعلى مصـدره الـربـاني، وعلى تـرتيبِ المصحف التـوقيفي من عنـد الله سبحـانـه وتعالى.

* * *

[٤]
«ترتيب السور المفتتحة بالتسبيح»

السورُ القرآنيةُ المفتَتَحَةُ بالتسبيح ستٌّ، وهي: الإسراء، الحديد، الحشر، الصف، الجمعة، التغابن، الأعلى.

وعندما ننظرُ فيها، فإننا نجدُها مرتّبة، ولا أقصدُ بالترتيبِ أنها متسلسلةً متتابعة، لأنَّ بينَها سوراً أخرى.

أعنى بترتيبِها، ترتيبَ اشتقاقاتِ مادَّة «التسبيح» التي افتُتِحَتْ بها كلُّ سورة منها.

إنَّ الأَصْلَ في اشتقاقاتِ أيّ كلمة مشتقَّةٍ هو المصدر، ثم الفعلُ الماضي، ثم الفعلُ المضارع، ثم فعلُ الأمر... وهكذا.

«سبحان. سبَّح. يسبِّحُ. سبِّحْ»

بالنسبةِ للتسبيح يكونُ ترتيبُ الاشتقاقات ـ على هذا الأساس ـ هكذا: سُبحان. سبَّحَ. يسبِّحُ. سبِّحْ.

وعندما ننظرُ في السورِ المفتتحةِ بالتسبيح فسنجدها مرتبة على هذا الأساس.

١ ـ سورةُ الإسراء: افتُتحتْ بالمصدر «سبحان»، لأنَّ المصدرَ هو الأساسُ في الاستعمال. قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾[١].

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

٢ ــ سوَرُ الحديدِ والحشر الصف: افتُتِحَتْ بالفعلِ الماضي. قال تعالى في سورة الحديد: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾[1]، وقال في سورتَيْ الحشر والصف: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ ﴾[2].

٣ ــ سورَتا الجمعة والتَّغابن افتُتِحَتا بالفعلِ المضارع. قال تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ ﴾[3].

٤ ــ سورةُ الأعلى افتُتِحَتْ بفعلِ الأمر. قالَ تعالى: ﴿سَبِّح اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾، وهـذا الترتيبُ المتدرِّجُ لاستعمالاتِ اشْتقاقاتِ مادَّةِ التسبيح في السور المفتَتَحَةِ بذلك دليلٌ على مصدرِ القرآن الرباني، وإشارةٌ إلى لطيفةٍ من لطائفِه الممتعة.

* * *

(١) سورة الحديد: الآية ١.
(٢) سورة الحشر: الآية ١.
(٣) سورة التغابن: الآية ١.

[٥]
«واو الثمانية في القرآن»

هنـاكَ آياتٌ في القـرآن، ذُكرتْ فيهـا «واوُ» العـطفِ ضمنَ معـدودات؛ ولكن كانت الآيةُ تورِدُ عدَّةَ معـدوداتٍ بدونِ عـطف، ثم تَذكُـرُ مَعْدوداً آخـر، وتعطفُهُ على ما سبقَ بحرف «الواو».

«المراد بواو الثمانية»

ويلاحَظُ أن هذا المعدود الذي بعْدَ الواو، يكونُ ترتيبُـه الثامن، ويكـون مخالِفاً في بعضِ الصفات للمعدوداتِ السابقة.

وقد سمّى العلماءُ هـذه «الواو» العـاطفةَ للمعـدودِ الثامن على مـا سبقه «واوَ الثمانية»، أيْ أنها دَخلتْ على المعدودِ الثامن.

نقـولُ عن «واوِ» الثمـانيـة إذنْ: هي واوُ عـطفٍ تـدخـلُ على المعـدودِ الثـامن، لتعطفَـهُ على ما سبقـه، ويكونُ مغـايِراً لبعضِ المـذكـورين قبلَه في بعضِ الصفات.

«واو الثمانية في سورة التوبة»

من الأمثلةِ على «واو الثمانية» في القرآن، قولُه تعالى: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ ﴾[1].

(١) سورة التوبة: الآية ١١٢.

تقدِّمُ هذه الآيةُ تسعَ صفاتٍ للذين باعوا أنفسَهُم وأموالَهم لله. ونـلاحظُ أنَّ «واوَ الثمانية» دخلَتْ على الصفةِ الثامنة «النّاهونَ عن المنكر»، كما نلاحظُ أن الصفـةَ الثامنـة مغـايـرةٌ للصفـةِ السـابعـة، فـالنهيُ عن المنكـرِ غيـرُ الأمـر بالمعروفِ، والمنكرُ مغايرٌ للمعروف.

«واو الثمانية في سورة التحريم»

ومن الأمثلةِ على «واو الثمانية» قولُه تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

لقد ذَكرتْ هذه الآيةُ صفات المرأةِ الصالحةِ النموذجية. ودَخلت «الواوُ» على الصفةِ الثامنة «أبْكاراً». وهي مغايرةٌ للصفةِ السابقة، فالمرأةُ إمّا أنْ تكونَ بِكْراً، وإمّا أنْ تكونَ ثيِّباً. ولا يمكنُ أن تجمعَ بين الصفتين!

«واو الثمانية في سورة الكهف»

ونقدِّمُ نموذَجاً ثالثاً على ««واو الثمانيـة» في القرآن. وهـو قولُـه تعالى: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2].

تَذكُرُ الآيةُ اختلافَ السـابقينَ في عددِ أَصحـابِ الكهف، وتذكـرُ ثلاثـةَ أَقـوالٍ لهم، وقد ذُكـرَ كلبُهم معهم في القولَيْن السـابقيْن بدونِ عـطف. بينما عَطفَ القولُ الثالثُ كلبَهم عليهم بالواو: ﴿. . . ويقولونَ سبعةٌ وثامنُهم كلبُهم﴾. وهي «واوُ الثمانية» التي دخلتْ على الرقمِ الثامن.

(١) سورة التحريم: الآية ٥.

(٢) سورة الكهف: الآية ٢٢.

ونخرجُ من «واوِ الثمانية» هنا بهذه الدلالات:

١ ـ إن القولَ الثالثَ الذي دخلتْ عليه، مغايرٌ للقولين اللَّذَيْن سبقاه، فالقرآنُ ذمَّ القولَيْن السابقَيْن لأنهما من بابِ الرجمِ بالغيب، إذ قال عنهما: ﴿رَجْماً بِالغَيْبِ﴾ بينَما سكتَ عن القولِ الثالث، بل أَشارَ إلى إمكانيةِ اعتمادِه والقولِ به، حيثُ أثبتَ العلمَ بهم للقليل: ﴿قُلْ: رَبّي أعلمُ بعدَّتِهم. ما يعلمُهُم إلاَّ قليل﴾.

ولذلكَ كان ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما يقول: أَنا من القليلِ الذين استثناهمُ الله: كانوا سبعةً وثامنُهم كلبُهم.

٢ ـ دخولُ الواو على «كلبهم» في القولِ الثالث الذي قالَه العلماء، له معنى أدبيٌّ أخلاقيٌّ ذوقيٌّ.

فبهذه «الواوِ» فصَلَ ما بينَ أصحابِ الكهف الأبرارِ الأَطهار، وبينَ كلبِهم النجس ـ الذي لم تغيِّرْ رحلتُه معهم، وحراستُه لهم، من حيوانيَّتِه ونجاسَتِه ـ فبينما ذكرَهُ القولان السابقان معهم بدون الواو، كأنه واحدٌ منهم، عطفهُ عليهم القول الثالث بالواو، والعطفُ يقتضي التغاير[1].

* * *

(١) انظر ـ إن شئت ـ كتابنا «مع قصص السابقين في القرآن» القسم الثاني الذي خصّصناه لقصص سورة الكهف. مبحث كلامنا عن «واو الثمانية» في عددهم.

[٦]

«لام الإخـلاص»

«سبح لله»

لامُ الإخـلاص: هي اللام الـداخلة على لفظِ الجلالـةِ في مثْـل قـولـه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١﴾[1].

وذلكَ أنَّ الفعلَ «سَبّحَ» متَعَدٍّ، ينصبُ مفعولاً به.

وهوَ أَحياناً يتعدّى إلى المفعولِ به بنفسِـه، فينصبُه مبـاشَرة. وذلـكَ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢٠٦﴾[2].

فالفعلُ «يُسَبِّحُونَ» نصبَ المفعولَ به مباشرة، وهو «الهاء».

وأحياناً لا ينصبُ هـذا الفعلُ ـ سَبَّحَ أَوْ يسبِّح ـ المفعـولَ به مبـاشرة، فيصلُ إليه بواسطةِ حرفِ الجرِّ «اللام» في مثلِ: ﴿سَبَّحَ لِلَّه ما في السمـوات والأرض﴾ فيكونُ ما بعدَها مجروراً لفظاً منصوباً محَلاً، لأنهُ مفعـولٌ به لفعـلِ «سبَّح».

والـلامُ الجارَّةُ «لِلَّهِ» عملُهـا الجرّ، فهي حـرفُ جرٍّ مبنيّ على الكسـرِ. لكنْ لها معنيانِ: بَلاغيٌّ وإيماني!

---

(١) سورة الحديد: الآية ١.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٢٠٦.

معناها البلاغيُّ هو التقوية. ولهذا تُسمّى «لامَ التقويـة». أي أنها تُقَـوّي وُصولَ الفعلِ «سبِّح» إلى المفعول به لفظ الجلالة «الله» فيصلُه بواسطتِها.

أمّا معناها الإيماني الذَّوْقي، فهو الإخـلاصُ، ولذلـكَ أَطْلَقْنَا عليهـا في هذه اللطيفة «لامَ الإخلاص».

وذلكَ لأنَّ الأصلَ في المسلمِ المسبِّح لِلَّه، أنْ يكونَ تسبيحُـه خالِصـاً لوجهِ لله، خاصّاً بالله، يبتغي به الأَجْـرَ من الله، فعندمـا يُسبِّح اللَّهَ يستحضـرُ النيةَ لله، ويُخلصُ قلبَه لله.

وقـد أشـارتْ لـه الـلاّم «سبِّـح لِلَّه» إلى معنى التخصيصِ ومعنـى الإخلاصِ، كيْ لا يكونَ تسبيحُه إلاَّ لله سبحانه!

***

[٧]

«لام التبليغ»

«قال لهم الناس»

قدْ يقولُ قائلٌ قولاً، ويريدُ أن يوصلَه إلى شخصٍ آخَر، ويبلِّغَه له، لذلكَ يستخدمُ هذا القائلُ أداةً للتوصيلِ والتبليغِ، وهذه الأداةُ هي «لامُ التبليغ».

فلامُ التبليغ: هي اللاّمُ الجارَّةُ، الدَّاخلةُ على مجرور، والتي سبقَتْها إحدى اشتقاقاتِ «القَوْل». مثل: «قالَ» أوْ «يقولُ».

وهذه اللامُ يسبقُها قائل، ويكون بعدَها الشخصُ الآخرُ المَقولُ له قولُ القائل.

مثالُ «لامِ التبليغ» قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾(١).

تتحدثُ هذه الآيةُ عن الرسالةِ الشفويَّة التي أرادَ قائدُ الكفار في معركةِ أُحُد «أبو سفيان» إيصالَها للمسلمين، وتبليغَهم إيّاها، وذلكَ ليُضعفَ عزائِمَهم، ويُدخِلَ الوهنَ والرعبَ إلى قلوبهم.

فأبلغَ قوماً من الأعرابِ المسافرين المتجِهينَ للمدينةِ هذه الرسالةَ ليبلِّغوها للمسلمين. فلمّا وصَلوا إلى المسلمين قالوا لهم: إنَّ أبا سفيان قد

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

جمعَ لكم جُموعاً كثيرةً من القبائلِ والأحزاب، وهو قادمٌ إليكمْ في المدينةِ ليستأْصِلَكُم ويقضيَ عليكم.

فلما بلغَ المسلمين هذا القولُ، زادَهُمْ إيماناً، وقالوا: حسْبُنا الله، ونعمَ الوكيل[1].

فلامُ التبليغ في الآية هي الداخلةُ على الضميرِ في قوله: ﴿قالَ لَهُمُ النّاس﴾ أيْ قالَ أولئكَ الأعرابُ للمسلمين.

وكلُّ لامٍ جارَّةٍ بعد القولِ هي لامُ التبليغِ، وعملُها هو الجرّ، فهي حرفُ جرٍّ مبنيٌّ على الفتح، لكنْ معناها هو «التبليغ».

* * *

(١) انظر هذه القصة في تفسير «الدر المنثور» للسيوطي ٢/٣٨٤ ـ ٣٩٠.

[٨]
«هاء الرفعة»

«عليهُ الله»

هاءُ الرفعةِ: هي الهاءُ المضمومةُ في كلمةِ «عَلَيْهُ» في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[1].

الأصلُ أنْ تكونَ الهاءُ في «عَلَيه» مكسورة، لأنّها ضميرٌ للمفردِ الغائبِ قبلَها «ياء» وهي مكسورةٌ في مواضعَ أُخرى سبقَها حرفُ «على» أوحرف «إلى» أوحرف «في» أوحرف الباء: عليه، وإليه، وفيه، وبه.

«سياق الآيات عن بيعة الرضوان»

لماذا هُنا تحولتْ كسرةُ الهاءِ إلى ضمة؟

إنَّ الحالةَ التي تعرضُها الآيةُ هي «بيعةُ الرضوان» التي بايعَ الصحابةُ فيها رسولَ الله ـ صلّى اللّه عليه وسلّم ـ في الحُدَيْبِية.

فلما أُشيعَ أنَّ عثمانَ بنَ عفان ـ الذي أوفدهُ رسولُ الله صلّى اللّه عليه وسلّم إلى مكة ليَعرِّفَ قريشاً بقصدِ الرسول عليه السلام في العمرة ـ قد قتلهُ أهلُ مكة. طلبَ الرسولُ عليه السلام من الصحابةِ مبايعَته تحتَ الشجرة.

---

(١) سورة الفتح: الآية ١٠.

روى الإمامُ مسلمٌ عن جابرِ بنِ عبدِ الله ــ رضي الله عنهما ــ قال: كُنّا يومَ الحديبيةِ ألفاً وأربعمائة، فبايعناه، وعمرُ آخذٌ بيده تحتَ الشجرة، ــ غيرَ جَدِّ بنِ قِيس، اختبأ تحتَ بطنِ بعيرِه ــ فقالَ لنا رسولُ الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: «أنتمْ اليومَ خيرُ أهلِ الأرضِ»[1].

وقد سمِّيت الشجرةُ التي تمت البيعةُ تحتَها «شجرةَ الرضوان»، وسميتْ تلك البيعةُ «بيعةَ الرضوان»، لأنَّ اللَّهَ يقول فيها: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾[2].

هذا الجوُّ الرفيعُ الكريمُ الذي يصفُه قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾[3].

«انعكاس الجو على حركة الهاء»

إنهُ جوُّ تشريفٍ وتكريمٍ من الله الكريمِ للصحابةِ السُّعداءِ المبايعين.

وبما أنَّ الجوَّ جوّ رفعة، فكأنَّ «الرفعةَ» أصابت «الهاءَ» في «عليه»، فكانَ من غيرِ المناسبِ أن تبقى مكسورة، لأنَّ الكسرةَ لا تُناسبُ هذا الجوّ، ولذلك تحوَّلَتْ تلكَ الكسرةُ إلى «ضمة» والضمةُ مناسبةٌ للرفعة.

---

(١) صحيح مسلم: (٣٣) كتاب الإمارة، (١٨) باب استحباب مبايعة الإمام الجيش، حديث: ١٨٥٦.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٨.

(٣) سورة الفتح: الآية ١٠.

ولهذا أطلَقْنا على هذه الهاء «هاءَ الرفعة».

ثمَّ إنَّ الجملَة تتحدثُ عن الوفاءِ بالعهد والبيعة: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾.

إنَّ الوفاءَ بالبيعةِ دليلٌ على صدقِ المبايع، وعُلُوِّ همته، ورفعةِ نفسه، وسموِّ خُلُقه. ولولا ذلك ما وفّى. ولهذا جاءت الهاءُ مضمومة.

وإن الوفاءَ بالبيعة يُكسِبُ المبايعَ رفعةً وسموّاً وعلوّاً وإشراقاً، في الدنيا وفي الآخرة. ولهذا جاءت الهاءُ التي تتحدثُ عن ذلك مضمومة.

فالضمةُ والرفعةُ جاءتْ للهاءِ من الجوِّ الذي تصفه، والنتيجةِ التي تقرِّرُها، إذ لا يناسبُ هذا الجوَّ وهذه النتيجة الكسرة.

وكثيراً ما نرى ألفاظاً في القرآن تتغيَّرُ صورتُها أو حروفُها أو حركاتُها من الأصلِ الطبيعي، إلى الصورةِ التي ترسمُها، والجوِّ الذي تتحدثُ عنه.

* * *

[٩]
«هـاء الخفـض»

«فيـهِ مهـاناً»

وهنـاكَ «هـاءٌ» أخـرى في القـرآن، مقـابِلةٌ لهـاءِ الـرفعـة، وهي «هــاءُ الخفض». وهي «الهاءُ» التي دخلَ عليهـا حرفُ الجـرّ «في» في قولـهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩﴾[١].

وقد نصَّ علماءُ القراءاتِ والتجويـدِ على إشباعِ كسـرةِ الهاءِ في قـوله: ﴿ويخلُدْ فيـه مُهانـاً﴾، فتُقرأُ هكـذا «وَيَخْلُدْ فيهي مُهـانـاً»، مـع أنَّ الهـاءَ في مثيلاتِها يُكْتفى بكسرتِها، أيْ أنَّ الهاءَ إذا تحرَّكتْ ووقعَ بعدَها حرفٌ متحرك، فإنها تُمَدُّ مدّاً طبيعياً بمقدارِ حـركتيْن فقط إلاَّ إذا وقعَ بعـدَها همـزة فإنهـا تُمَدُّ أكثرَ من حركتيْن، ويكونُ مدُّ صلةٍ كبرى.

فلماذا مدَدْنا «الهاءَ» أكثرَ من حركتيْن في قولِه «يخلُدْ فيهِ مُهاناً»؟

«مد الهاء لمناسبة السياق»

إنَّ الـذي دَعا إلى هـذا هو السيـاق الذي وردتْ فيـه. فقد سبقَهـا ذِكْـرُ مجموعةٍ من المعاصي والفواحشِ التي لا يفعَلُهـا عبادُ الـرحمن: لا يشركـونَ

---

(١) سورة الفرقان: الآيتان ٦٨، ٦٩.

بالله، ولا يقتلونَ النفسَ التي حرَّم الله إلاَّ بالحقِّ، ولا يَزْنون.

ثم ذَكرتِ الآياتُ ما يترتبُ على هذه الكبائر في من عقوبةٍ، وهي العذابُ الشديدُ المضاعَف لصاحبها، وخلودُه فيه، مُهاناً ذليلاً خاسئاً.

وعندما نقرأُ الآية، ونصلُ إلى قوله: ﴿ويخلُدْ فيهِ مُهاناً﴾، فكأننا نلحظُ إلقاءَ صاحبِ تلك المعاصي في جهنم، وسقوطَه فيها، وهويَّهُ إلى قعرِها.

وعندما نمدُّ «الهاءَ» في «فيه» أكثرَ من حركتيْن، وكأنَّنا بهذا المدِّ الخاصِ هنا نساعدُ على إنزال المجرمِ في جهنم، ومسارعةِ سقوطِه فيها. حتى عندَما يقرأُها القارىء، ويمدُّها أكْثرَ من حركتيْن، فإن نَفَسَهُ ينزلُ إلى أسفل نحو رئتيه. وبذلكَ يساعِدُ على الإنزالِ والخفض.

ولهذا سمَّيْناها «هاءَ الخفض» ــ والله أعلم ــ.

* * *

[١٠]
«تـاء الخفّـة»

«تستطع . . . تسطع»

إذا نظرْنا في سورةِ الكهف، وفي قصةِ موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ فسوفَ نقفُ على «تاءٍ» محذوفةٍ للتخفيف، وهي تشيرُ إلى لطيفةٍ أُخرى من لطائف القرآن.

عندما قابلَ موسى الخضرَ ـ عليهما السلام ـ وعرضَ عليه أن يتبعه ليتعلمَ منه، أخبرهُ الخضرُ أنه لا يستطيعُ أن يصبرَ معه، لأنه سيفاجأُ بأشياء وأحداث لن يصبرَ عليها.

ووعدَه موسى أنْ يصبرَ، وأنْ يطيعَ الخضر، ولا يعصي له أمراً، وطلبَ منه الخضرُ أن لا يعترضَ على أيِّ شيء يراه، وأن لا يسألَه عنه.

واتفقا، وانطَلقا.

وخرقَ الخضر السفينة، واعترضَ موسى عليه. وذكَّره الخضرُ بعهْدِه، واعتذرَ له، وبيَّن له أنه كانَ ناسياً.

وانطلقا. وقتلَ الخضرُ غلاماً، واعترضَ موسى عليه، وذكَّره الخضرُ بعهده، وتعهَّدَ موسى، وجعلَه في حِلٍّ من الرحلةِ معه إنْ سألَه.

وانطلقا. وذهبا إلى قرية، أهلُها بخلاء، فوجَدا فيها جداراً على وشك السقوط، فقامَ إليه الخضرُ وأصلحه. واعترضَ موسى، وأشارَ له بأخْذِ أُجْرةٍ من أهلِ القرية البخلاء.

وافترقَ موسى والخضر، وقبْلَ افتراقِهما قال له الخضر: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾[1].

وبيَّن له حقيقةَ الأحداث الثلاثـة: خرقِ السفينـة، وقتلِ الغـلام، وبناءِ الجدار، وختمَ بيانه بقوله: ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾[2].

ونلاحظُ أنَّ «التاءَ» موجودة في الفعلِ «تستطع» في الآيـة الأولى، بينَما هذهِ التاءُ محذوفةٌ في المرةِ الثانية: ﴿ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

ووجودُ «التّاءِ» في الفعلِ «تَسْتَطِعْ» في المـرةِ الأولى أمرٌ لا يحتـاجُ إلى تعليل، لأنهُ على الأصل. فالماضي، «استطاعَ» والمضارعُ «تستطيعُ».

لكنَّ الـذي يحتاجُ إلى تعليـلٍ هو حـذفُ «التاءِ» من الفعـلِ في المـرة الثانية «تسْطع».

إنَّ حذْفَها في المرةِ الثانية للتخفيف، ولهذا أسْميناها «تاء الخِفَّة».

«إثباتها لتناسب الثقل النفسي»

لقـد شاهـدَ موسى ــ عليـه السلام ــ من الخضـر، ثلاثـةَ أفعال، وهي غريبة، وغيرُ مقبولة في الظاهر، وتدعو إلى الإنكار والاعتراض. فكيفَ يخرقُ الخضر سفينةً صالحة؟ وكيفَ يقتـلُ غلامـاً صغيراً؟ ولمـاذا بنى الجدارَ لقـومٍ بخلاءَ بدون أجر؟

وقعَ موسى في حَيْرةٍ، في تأويلِ وتعليلِ الأحداث، وكأنه صارَ في همٍّ نفسيٍّ وشعوريٍّ ثقيل.

(١) سورة الكهف: الآية ٧٨.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٢.

ولاحظَ السياقُ ذلك الهمَّ النفسيَّ الثقيلَ، فأثبتَ «التاء» مع الفعلِ أوّلَ مرة، ليتفقَ ذلك مع الثقلِ النفسيِّ الذي يعيشُه موسى ـ عليه السلام ـ ولذلكَ قال له الخضر: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لم تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾.

«حذفها لتناسب زوال الثقل النفسي»

وبعدما علَّلَ الخضرُ لموسى ـ عليهما السلام ـ حقيقةَ الأحداث، عرفَ موسى وجهَ الصواب في تصرُّفِ الخضر، لقد خرَقَ السفينة لتنجوَ من مصادرةِ الملكِ الظالم، وقتلَ الغلام ليستريحَ أبواه الصالحان من كفرِه، وبنى الجدارَ ليغطيَ كنزاً لغلامَيْن يتيمَيْن تحتَه.

عرفَ موسى أن الخضرَ على حقٍّ وصواب في تصرفاتِه الثلاثة، وبذلك زالَ الهمُّ الذي سيطرَ عليه، والثقلُ النفسيُّ الذي عاشه.

ولاحظَ السياقُ زوالَ ذلك الثقلِ النفسي، فحُذفتِ «التاءُ» من الفعل «تَسْطِعْ» لتشاركَ التخفيفَ النفسيَّ عندَ موسى، بخفَّةٍ في حروفِ الفعل ـ والله أعلم ـ.

* * *

[١١]
«تــاء الخفّــة»

«اسطاعوا . . . واستطاعوا»

هنــاك «تــاءُ خفّــةٍ» أخــرى في ســورةِ الكهف. وردتْ فـي قصــةِ «ذي القرنين».

فلمّا سارَ «ذو القرنين» رحلتَه الثالثة نحو الشمال، ووصـلَ بين السَّدّيْن، وشكا إليه القومُ هناكَ غاراتِ يأجوج ومأجـوج، بنى لَهم سَدّاً منيعـاً، وبذلـكَ حَماهم اللّهُ من يأجوج ومأجوج.

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ ﴾[١].

لقـدْ صهرَ «ذو القـرنين» الحديـدَ، ثم صبَّ فـوقَـه النحـاس المُـذاب، فتخلَّلَ النحاسُ الحديدَ، وبنى من ذلكَ السَّـدَّ، فجاءَ سَـدّاً قويّـاً منيعاً متينـاً، ليسَ فيـه نُتوءات يتمكَّنُ يـأجوجُ ومـأجوج من استخـدامِها في التسلُّق، وليس

---

(١) سورة الكهف: الآيات ٩٣ ــ ٩٧.

بناؤه ضعيفاً يقْدِرُ يأجوجُ ومأجوجُ على نقضه.

وعبَّرَ القرآنُ عن عجزِهم عن تسلُّقِ الجدار والظهورِ فوقَه بقوله: ﴿فَما اسْطاعوا أَنْ يَظْهَروهُ﴾، بحذْفِ «التّاء» من الفعل.

بينما عبَّرَ عن عجزِهم عن نقضِه بقوله: ﴿وَما اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ بإثباتِ «التّاء» في الفعل!

فلماذا حُذِفتِ التاءُ في المرة الأولى؟ وأُثْبتتْ في المرةِ الثانية؟

«حذف التاء لتناسب خفة التسلق»

إنَّ حذفَ حرفٍ من كلمةٍ قرآنية، أو إثباتَه، أو تغييرَ حركته، أمرٌ مقصودٌ، لحكمة باهرة. ويتَّفقُ هذا مع السياقِ الذي وردَ فيه، والجوِّ الذي يُشيعُه، والمعنى الذي يقرِّرُه. وهذه ملاحظةٌ مطَّردةٌ في أُسلوب القرآن.

وهنا حَذْفُ «التاءِ» من فعلِ «اسطاعوا» يتفقُ مع المعنى الذي تقررهُ الجملة: ﴿فَما اسْطاعوا أَنْ يَظْهَروهُ﴾. أيْ ما «اسْطاع» أفرادُ يأجوج ومأجوج تسلُّقَ جدار السدِّ العالي الأملس، الذي بُنِيَ من الحديد، وكيف يتسلَّقونه وهو خالٍ من النتوءاتِ والمقابضِ التي يُمسكون بها؟

إنَّ تسلُّق جدار السدِّ يحتاجُ إلى «خفَّةٍ» ورشاقة ومهارة، وكلَّما كانَ الشخصُ أكثرَ رشاقة ومهارة وخفة كان أقدرَ على التسلُّق، بينما تقلُّ قدرتُه على التسلُّقِ أو تضعفُ وتتلاشى إذا كان ثقيلَ الوزن، كثيرَ الشحم.

فلأنَّ التسلُّقَ يتطلبُ هذه الخفةَ، جاء الفعلُ «اسْطاعوا» مساهِماً في هذه الخفَّة، متخفِّفاً من أحدِ حروفه كما يتخففُ المتسلِّقُ من بعضِ أحْمالِه!!

فكان حذفُها للخفَّةِ والتخفيف، ولهذا سمَّيناها «تاءَ الخفة».

«إثباتها لتناسب مشقّة الحفر»

أما إثباتُ هذه «التاء» في الفعلِ في المرة الثانية «اسْتطاعوا» فهو يتفقُ مع المعنى الذي تقرِّره جملة: ﴿وما استطاعوا له نَقْباً﴾.

إنَّ نقبَ جدارِ السدِّ، وجعْلَ «نَقْبٍ» فيه، يحتاجُ إلى جهدٍ وكدٍّ، ويتحمَّلُ الإنسانُ في ذلك كثيراً من المشقَّةِ و «الثِّقلِ» النفسي والأدواتِ المادية التي يَنقُضُ الجدارَ بها، كما أنه يأخذُ منه وقتاً طويلاً، يمرُّ عليه ثقيلاً!

فلهذه «الأثقال» المادية والنفسية، الزمانية والمكانية، التي تُقرِّرها الجملة، جاءَ الفعل «اسْتَطاعوا» مساهِماً فيها، مشارِكاً بتثقيل إيقاعه وتركيبِه، عن طريقِ زيادةِ حروفه!

ولذلك جاءت «التاءُ» في الفعلِ «استطاعوا» للتثقيل. ــ والله أعلم ــ.

* * *

[١٢]
«ألف العزة: العباد»

وردتْ كلمةُ «عِباد» حواليْ مائةِ مرَّة في القرآن، وهي في معظمِ هذه المرّات وُصِفَ بها المسلمون المُطيعون لله، حيثُ وُصِفَ بها المسلمون، وأُطلِقَتْ عليهم في أكثر من تسعينَ مرة.

ولهذا لا نخطىءُ إذا قلنا: إنَّ غالبَ كلمةِ «عباد» في القرآن، يُراد بها المسلمون العابدون لله.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1].

وعندما ننظرُ في صياغةِ هذه الكلمة «عِباد» وتركيبِ حروفِها، فإننا نجدُها بالألفِ، في وسطها.

نستخرجُ من ذلك لطيفةً من لطائفِ القرآن.

إن هذه الألفَ الممدودةَ «عباد» توحي بالعزَّةِ والمنعةِ والأنفةِ والرفعةِ، وكأنَّها مرفوعةُ الرأس، منصوبةُ القامة باستمرار.

ولهذا أَطْلَقْنا على هذه الألف: «ألفَ العزة».

وهذه العزةُ والأنفةُ والرفعة نلحظُها في حياة العباد المؤمنين المطيعين لله.

فالعبادُ المؤمنون يعيشونَ حياتَهم في الدنيا بعزةٍ ورفعةٍ واستعلاءٍ

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٦٣.

يحـاربون الـظلمَ، وينفرونَ من الـذل، قامـاتُهم عزيـزةٌ منتصبـة، لا يَحْنـونَهـا إلاّ لله، ورؤوسُهـم مرتفعةٌ عزيزة لا يَخْفِضونَها إلاّ لله.

ويـواجِهُ العبـدُ المؤمنُ كلَّ قـوى الجاهليـة، بعـزةِ العقيـدة، واستعـلاءِ الإيمان. إنَّه مهما جرىٰ له، لا يَحْني هامَتَه إلاّ لله، ومهما هُـدِّد وأُوذيَ وضُيِّقَ عليه وعُذِّب، لا يُطَأطِىءُ رأسَه إلاّ لله.

ونـظراً لعزةِ العبـادِ المؤمنين، جاءَ التعبيرُ عنهم بكلمة «عبـاد». وجاءت الألفُ القائمةُ المنتصبة «ألفُ العزة» وسْطها، لتشيرَ إلى هذا المعنى!!

* * *

[١٣]
«ياء الذلةِ : العبيد»

إذا كانتْ أَلِفُ «العباد» ألفَ العزة، فإنَّ ياءَ «العبيد» هي «ياءُ الذلة»!

وإذا كانَ غالبُ استعمالِ «عباد» في القرآنِ للمؤمنين، فإنَّ كلمةَ «عبيد» في القرآن، وردتْ وصْفاً للكفار والعصاة.

«العبيد في القرآن: الكفار»

وردتْ كلمةُ «عبيد» خمس مَرَات في القرآن:

١ ــ قال تعالى عن كفرِ اليهود: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾[١].

٢ ــ وعن عذابِ الكفار عند الاحتِضار يقولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾[٢].

٣ ــ وفي موضعٍ آخرَ يقول الله عن عذاب الكافر: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن

---

(١) سورة آل عمران: الآيتان ١٨١، ١٨٢.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٥٠، ٥١.

يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ ﴾[1].

٤ ـ وعن عدلِ الله في منحِ الثواب للمحسن، وإيقاعِ العذاب بالكافر، يقول تعالى: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾[2].

٥ ـ وفي موضعٍ آخرَ يبيِّن عدلَ الله في تعذيبِ الكافر: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾[3].

وعندما ننظرُ في هذه الآياتِ، فإننا نخرجُ منها بهذهِ الإيحاءاتِ واللطائف:

١ ـ وردتْ «العبيدُ» في المواضِعِ الخمسةِ في الكلامِ عن الكفار.

٢ ـ تبيِّنُ المواضعُ الخمسةُ عدلَ الله في إدخالِ الكفارِ النارَ، وجَعْلِهم يذوقون فيها عذابَ الحريق.

٣ ـ كلُّها تنفي الظلمَ عن الله: ﴿وما رَبُّكَ بظلّامٍ للعبيد﴾.

٤ ـ وردتْ في المواضعِ كلِّها بهذه العبارة المنفيَّة: ﴿... بظلّامٍ للعبيد﴾.

---

(١) سورة الحج: الآيات ٨ ـ ١٠.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٦.

(٣) سورة ق: الآيات ٢٧ ـ ٢٩.

«عبيد لتناسب ذل الكفار»

إنَّ التعبيرَ عن الكفار بكلمةِ «عبيد» يوحي بالذلَّةِ المُلازِمَةِ للكفار.

الكفارُ أذلّاءُ جبناءُ ضعفاءُ مُهانون، لا يريدونَ العزة والرفعة، ولا يشعرونَ بالكرامة والأنفة. تجدُهم أَحرصَ الناس على حياة، وتراهم يذلّون أمامَ المتسلّطينَ الظالمين، لأنَّ المهمَّ عندهم هوَ أن يتكرَّمَ عليهم ذلك المتسلط الظالم بالحياة... أيِّ حياة.

الكفارُ أَذلّاء، أذلّاءُ في حياتهم، وفي أشخاصهم، وفي مواقفهم.

ولأنَّ كلمةَ «عبيد» وردتْ في القرآن وصْفاً لهؤلاءِ الكفار الأذلاء، جاءت بالياء، التي تشيرُ إلى الذلّة في حياتهم.

إنَّ «الياءَ» هنا، هي «ياءُ الذلة» الملازِمة لهم، بل إنَّ صياغةَ الكلمة توحي بالذلة، لأن الياءَ جاءت وسط الكلمة منبطحةً ملقاةً بذِلَّةٍ.

* * *

[١٤]
«مَيِّت . . . و . . . مَيْت»

وردتْ في القرآنِ كلمتانِ متقاربتان، وهما «ميِّتْ» و «ميْت».

وردتْ كلمةُ «ميِّت» ـ بالتشديد ـ للمفردِ اثنتَيْ عشرة مرة. وورَدَ جمعُها مرفوعاً «مَيِّتونَ» مرَّتَيْن، وورَدَ مجروراً مرةً واحدة «بميِّتين».

بينما وردتْ كلمةُ «مَيْت» ـ بالتَّسكين ـ خمسَ مرات، وكانت الكلمةُ منصوبةً في المرات كلِّها. بينما ذُكرتْ كلمةُ «الميْتَة» ستَّ مرات.

فما هو سرُّ هذا التفاوتِ في التعبير؟ وما هو الفرقُ بين الكلمتين «ميِّت» و «ميْت»؟

«لا ترادف في القرآن»

اعتبرَ بعضُ العلماء الكلمتَيْن بمعنى واحد، وأَنَّ كلاًّ منهما تتحدثُ عن الميِّت!

لكنَّ هذا الرأيَ غيرُ صحيح ـ في رأينا ـ لأَنَّنا نرى مع المحقِّقين من العلماء أنه لا ترادفَ في كلماتِ القرآن، بمعنى أنه لا توجَدُ كلمتان في القرآنِ بمعنى واحد، بل لا بدَّ من فروقٍ بينَهما.

كما أنَّ القرآنَ قد يعدلُ عن صورةٍ معروفة إلى صورةٍ أخرى، تختلفُ عن الأُولى في عدد حروفِها أو ترتيبها، أو في حركاتها. ويكونُ قاصداً هذا التغيير، لذلك لا بدَّ من حِكَم ولطائف من هذا التغيير.

«الميِّت من فيه روحه»

إذنْ «ميِّت» ليست بمعنى «ميْت»، فما هو الفرقُ بينهما؟ وما هو السياقُ الذي وردتْ فيه كلٌّ منهما؟

«الميِّت» ـ بالتشديد ـ هو الحيُّ الذي فيه الروح.

و «الميْت» ـ بالتخفيف ـ هو الذي خرجَتْ روحُه منه.

الميِّت ـ بالتشديد ـ مخلوقٌ حيّ، ما زال يعيشُ حياتَه. وينتظرُ أجلَه، ومجيءَ مَلَك الموت إليه ليقبضَ روحه، أيْ إنه: ميِّت مع وقْفِ التنفيذ! ولا يَدري متى يبدأُ التنفيذ.

ولدى النظر في سياقِ الآيات التي استخدمَتْ كلمةَ «ميِّت» نرى هذا المعنى واضحاً.

من الأمثلةِ على ذلكَ قولُه تعالى، يخاطبُ رسولَه ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١ ﴾[1].

تخاطبُ الآيةُ أحياءَ، تخاطبُ الرسولَ عليه الصلاة والسلام، وتخبرُه أنه سيموت: ﴿إِنَّكَ مَيِّت﴾، وأنَّ خصومَه الكفارَ سيموتون: ﴿وَإِنَّهُمْ مَيِّتون﴾.

إذنْ كلُّ حيٍّ «ميِّتٌ» حالَ حياته! أيْ إنَّهُ حيٌّ ينتظرُ قدومَ الموتِ وحُلولَ الأجل.

«الميْت من خرجت روحه»

أمَّا «الميْت» ـ بالتسكين ـ فهو المخلوقُ الذي «ماتَ» فعلاً، بأَنْ خرجَتْ روحُه، وأصبحَ جثَّةً هامدة. وقد أُطْلقَ في القرآنَ على ما يلي:

---

(١) سورة الزمر: الآيتان ٣٠، ٣١.

١ ــ **البلدُ الميْتُ**: الذي لا حياةَ فيه، فيُحييهِ اللّهُ بالمطر. قالَ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾[١].

٢ ــ **الأرضُ المَيْتَة**: التي لا نَباتَ فيها، فيُحييها اللّهُ بالمطر: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[٢].

٣ ــ **البهيمةُ المَيْتَة**: التي خرجَتْ روحُها بدونِ ذبحٍ شرعيٍّ، ولذلكَ حرَّمها الله علينا: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[٣].

٤ ــ **المَيْتُ**: هو الإنسانُ الذي ماتَ وخرجَتْ روحُه، وقد شَبَّهَ اللّهُ الذي يغتابُ أخاه بمَنْ يأكُلُ لحمَ ذلك الإنسانِ الميْت: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾[٤].

«الكافر ميْت القلب»

٥ ــ **الكافرُ**: قلْبه ميْت. فهو مَيْت موْتاً معنوياً، رغمَ أنهُ يتحركُ ويتنفس، ميْتٌ لخلُوِّ قلبِه من الإيمان، وحياتِه من الاستقامة، ولا يُحيي قلْبه إلاَّ الإيمان: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾[٥].

وانطلاقاً من هذهِ الآية، نقرِّرُ أنَّ كلَّ كافرٍ «مَيْتٌ» موتاً معنوياً في قلبه،

---

(١) سورة الزخرف: الآية ١١.
(٢) سورة يس: الآية ٣٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ٣.
(٤) سورة الحجرات: الآية ١٢.
(٥) سورة الأنعام: الآية ١٢٢.

وأنَّ كلَّ مؤمنٍ حيٌّ حياةً معنوية. كما نقرِّرُ أنَّ الكفرَ موت، وأنَّ الإيمان حياة ﴿أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْناه﴾، أيْ: مَنْ كانَ كافِراً فهدَيْناهُ إلى الإيمانِ والإسلام والحياة.

ونلخِّصُ كلامَنا السابق بأنَّ: الميِّتَ: هو الحيُّ الذي ينتظرُ الموت. والميْتَ هو الذي ماتَ فعلاً، وخرجتْ روحُه من جسده.

«دلالة حركات الكلمتين على المعنى»

وإنَّ صياغةَ الكلمتين وحركاتِهما، توحي بهذا الفرقِ بينهما.

فالميِّت، ياؤه مشدَّدة، ولعلَّها إشارةٌ إلى إقبالِ الإنسان، الحيِّ على حياته الدنيا، وانهماكِه فيها، وحرصِه عليها بكلِّ ما أُوتي من قوةٍ وشدة.

أمَّا الميْت الذي خرجَتْ روحُه، فياؤه ساكنة غيرُ متحركة، ولعلَّها إشارةً إلى سكونِ هذا الإنسان بعدَ خروجِ روحه، وتوقُّفِه عن الحركة.

ونُنهي الفروقَ بينهما بقولِ الشاعر:

وَتَسْأَلُني تَفْسيرَ مَيْتٍ وَمَيِّتٍ فَدونَكَ ذَا التفسيرُ إنْ كُنْتَ تَعْقِلُ
فَمَنْ كانَ ذا روحٍ فَذلِكَ مَيِّتٌ وَما المَيْتُ إلاَّ مَنْ إلى القَبْرِ يُحْمَلُ

* * *

[١٥]
«مصر . . . و . . . مصراً»

فرْقٌ بينَ «مِصْرَ» الممنوعةِ من الصَّرف، وبين «مِصْراً» المصروفة، في الاستعمالِ القرآني. ولا وزنَ لقولِ مَنْ جعَلَهما بمعنى واحد، لأنه لا ترادُفَ في كلماتِ القرآن.

ولْنتابعِ الآن ورودَ هاتيْن الكلمتيْن في نصوص القرآن.

«مصر: هي القطر المعروف»

وردتْ كلمةُ «مِصْرَ» الممنوعةِ من الصرفِ أربعَ مرات في القرآن:

١ ـ أشارَ القرآن إلى اشتراءِ «العزيز» ليوسف: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾[1].

٢ ـ وقال يوسف ـ عليه السلام ـ لوالدَيْه وإخوته لما وَفدوا إليه، بعدَ أنْ صارَ عزيزَ مصر: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[2].

٣ ـ ولما اشتدَّت المعركةُ بينَ موسى عليه السلام وبينَ فرعون، استنفرَ فرعونُ قومَه ضدَّ موسى، وامتنَّ عليهم بملكِهِ «مصر». قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى

---

(١) سورة يوسف: الآية ٢١.

(٢) سورة يوسف: الآية ٩٩.

مِن تَحْتِيٓۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾[1].

٤ ـ وبعدما آمنَ السَّحَرةُ بموسى ـ عليه السلام ـ وهدَّدَهم فرعون، وبدأ في إيذاءِ أتْباع موسى، أمر موسى قومَه المؤمنين أنْ يختاروا لهم بيوتاً في مصر: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾[2].

والمرادَ بكلمة «مصر» في هذه المواضع الأربعة، هو القطرُ المعروف، الذي يجري فيه نهرُ النيل، وعاصمتُه القاهرة.

إنَّ أَحداثَ قصةِ يوسفَ ـ عليه السلام ـ جرَتْ في مصر. وإنَّ المعركةَ بينَ موسى ـ عليه السلام ـ وبينَ فرعون جرَتْ في مصر.

إذنْ كلمةُ «مصر» الممنوعة من الصرف، وردَتْ أربعَ مرات في القرآن، وهي معرَّفةٌ، أُطلقتْ على القطر المعروف.

«مصراً: أيَّ قطر»

أما كلمةُ «مِصْراً» فقدْ وردَتْ في القرآنِ مرَّةً واحدة:

لقد أنجى اللَّهُ بني إسرائيل من فرعون، وأَسكنَهُم في «سَيْناء». وظلَّلَ عليهم فيها الغمام، وفجَّر لهم فيها العيون، وأَطعمهم فيها «المَنَّ والسَّلْوى»... لكنهم ملُّوا هذا الطعامَ الشهيَّ اللذيذَ، وطلَبوا الحصولَ على البقلِ والقِثّاءِ والفومِ والعدسِ والبصل. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌۚ

(١) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٢) سورة يونس: الآية ٨٧.

﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾[1].

وكلمةُ «مِصْراً» المصروفةِ في الآية ليستْ هي الإقليمَ المعروف، وإنما هي نكرةٌ تنطبقُ على أيِّ مِصْر أو قطر.

ومعنى «مِصْر» في اللغة هو القطرُ أو المدينة أو القرية. قالَ الراغبُ الأصفهاني: «المِصْرُ: اسمٌ لكلِّ بلدٍ مَحْصور، أَيْ: محدود... والمِصْرُ هو الحدّ»[2].

ومعنى قولِ موسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ ما سَأَلْتُمْ﴾ أنَّ ما تطلبونَه من الخضروات غيرُ متوفِّر في الصحراء، فَاذْهَبوا إلى أيِّ مصرٍ أَوْ بلد أو قرية، فستَجدون فيها ما تريدون.

وتنوينُ «مِصْراً» هو تنوينُ «التَّنكير»: وهو التنوينُ الذي يلحقُ النكرةَ تمييزاً لها عن المعرفة.

إذنْ: كلمةُ «مِصْراً» المصروفة في القرآن، لا تَعني الإقليمَ المعروف، بل تعني أيَّ قطر أَو إقليم أَو بلد. وتنوينُها تنوينُ «تنكير» يدلُّ على عمومها!

* * *

(١) سورة البقرة: الآية ٦١.

(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ص ٤٦٩.

[١٦]

«نُكْر . . . و . . . منكَر»

وردتْ كلمتـانِ متقاربتـانِ في القرآن، مـادَّتُهما الأصليـةُ واحدة. وهمـا النُّكْرُ والمنْكَرَ. وأصْلُهما ـ جذرُهما الثلاثيُّ ـ «نُكْرٌ».

قال الإمام الراغب الأصفهاني عن «نكـر» في المفردات: «الإنكـارُ ضدُّ العـرفـان. يُقـال: أنْكَـرْتُ كـذا، ونَكِـرْتُ. وأَصْله: أنْ يَـرِدَ على القلبِ ما لا يتصوَّرُه. . . وقد يُستعْمَلُ ذلك فيما يُنْكَرُ باللسان.

والمنكَر: كلُّ فعـلٍ تحكُمُ العقـولُ الصحيحـةُ بقُبْحِـه، أو تتـوقَّفُ في استقباحِه واستحسانِه العقولُ، فتحكُمُ بقبْحِه الشريعة.

والنُّكُرُ: الدَّهاء، والأمْرُ الصَّعبُ الذي لا يُعرف. . .»[١].

وردتْ كلمـةُ «نُكْراً» ثـلاثَ مرات. وكلمـةُ «نُكُر» مـرةً واحـدة. وكلمـةُ «منكَر» ستَّ عشرةَ مرة.

وهناكَ فرقٌ بين الكلمتيْن: «نُكْرٌ» و «مُنْكَر».

«الفرق بين الكلمتين»

النُّكْـر: هو مـا يجهَلُه الإنسان فيستغـربُـه وينْكِـرُه، ويكـون هـذا بسببِ جهلِه، فيكونُ مخطِئاً في ذلك، ويكونُ الشيءُ في حقيقتِه صحيحاً صواباً.

أما المنكَر: فهو الأمرُ القبيحُ الباطـل في حقيقتِه وأصلِه، فينكِـرُه الشرعُ

(١) المفردات: ص ٥٠٥.

ويحرِّمُه، ويدعونا إلى إنكاره ومحاربته. وهو مرفوضٌ باطل، وإنْ قَبِله أُناس وفعلوه ورضُوا به.

«النكر: في القرآن»

والآنَ إلى آيات القرآن لنبيِّن فيها هذه اللطيفة.

١ ـ لمّا سارَ موسى مع الخِضر ـ عليهما السلام ـ أَقدمَ الخضرُ على قتْلِ غلامٍ صغير: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾[1].

لقد أنكرَ موسى على الخضر قتْلَه للغلام، واعتبرَ فعلَه يدعو للنُّكْر والإنكارِ، ولهذا أنكرَ عليهِ موسى فعلَه: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً!﴾.

لكنَّ الخضرَ كان على صوابٍ في قتلِه للغلام، ولذا قال لموسى فيما بعد: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَـٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾[2].

فالفعلُ «قَتْلُ الغلام» في ظاهره خطأ، يدعو للإنكار، ولكنه في حقيقته صحيحٌ وصواب. ولهذا وصفَه بأنه «نكْر» وليس «منكَراً»!

٢ ـ لمّا سارَ «ذو القرنين» غَرباً، وبلغَ مغربَ الشمس، وجدَ هناك قوماً: ﴿قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: الآية ٧٤.

(٢) سورة الكهف: الآيتان ٨٠، ٨١.

(٣) سورة الكهف: الآيتان ٨٦، ٨٧.

فوصفَ ذو القرنين تعذيبَ الله للكافرِ يومَ القيامة بالنُّكْر: ﴿فيعذِّبُه عذاباً نُكْراً﴾.

فهل لا يستحقُّ الكافرُ ذلك العذاب؟ وهل ظلَمَهُ اللّهُ فعذَّبه؟ وهل يدعو هذا إلى الإنكار؟

الجوابُ على كل هذا بالنفي. فالكافرُ يستحقُّ التعذيب، واللّهُ عادلٌ معه لأنه لا يظلمُ أَحداً، ومَنْ هو الذي يعترضُ على حكمِ الله!

إذن لماذا وُصفَ بأنهُ «نكْر»؟

إنَّ ذلكَ التعذيبَ قد ينكره الكافرُ في الدنيا عندما يسمعُ به، ويعتبرهُ قسوةً ووحشية!

ولكنَّ إنكارَه غيرُ صحيح، لأنَّ اللّهَ عادلٌ في تعذيبِ ذلك الكافر.

فتعذيبُ الكافر في نظرِ الكافر خطأٌ يدعو للإنكار، لكنهُ في حقيقته صحيحٌ وصواب. ولهذا وصفَهُ بأنه «نُكْر»، وليس «منكَراً».

٣ ـ عذَّبَ اللّهُ الأقوامَ الكافرين في الدنيا، بسببِ تمرُّدهم على أحكامِه ودينه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾﴾[1].

وُصِفَ تعذيبُ اللّهِ للقريةِ الكافرة بأنه «نكْر»، لأنهُ قد يستنكرهُ بعضُ الكفار ويستهجنُه، ويعتبرُه قسوة وانتقاماً وظلماً، مع أنَّ اللّهَ عادلٌ في تعذيبِه لهم، وفعلُه صحيحٌ وصواب.

نخرجُ من هذا بهذِه القاعدة: كلمةُ «نكْر» أُطلقت في القرآنِ ثلاثَ مرات، على أفعال، في ظاهرِها خطأٌ قد يدعو إلى الإنكار، لكنَّها في حقيقتِها صدقٌ وصِحةٌ وصواب.

---

(١) سورة الطلاق: الآيتان ٨، ٩.

«معنى المنكر في القرآن»

أمّا كلمةُ «منكَر» ـ التي وردَتْ في القرآن ستُّ عشرةَ مرة ـ فإنها تَعني الأمرَ الشائن، والتصرُّفَ القبيح، والفعلَ المحرم، والشيءَ الباطل.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ﴾[1]. أيْ: يقولون قَوْلاً خاطِئاً منكَراً محرَّماً.

وقدْ أوجبَ اللّهُ على المسلمين إنكارَ المنكر، في أكثرَ من آية: نكتفي منها بقولِه تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾[2].

والخلاصةُ: إنَّ القرآنَ فرَّقَ بينَ النكْر والمنكَر.

فالنكْرُ: هو الأمرُ الذي قد يستغربُه الإنسان وينكرُه، لأنه يظنُّه خطأً، مع أنه في حقيقتِه صدقٌ وصواب.

أما المنكَر: فهو الأمرُ الذي ينكرُه الشرع ويرفضُه ويحرِّمه ويدعُونا إلى محاربتِه وإنكاره، لأنه باطلٌ وخطأ، ولو رضيَ به بعضُ الناس وقَبِلَه.

فكلُّ «نُكْر» صوابٌ في ميزان الله، وإنْ أنكره بعضُ الناس!

وكلُّ «منكَر» خطأٌ في ميزان الله، وإنْ قبلَه بعضُ الناس!

والمعتبَرُ في القبول والإنكارِ ليس أعرافَ الناس أوْ تشريعاتِهم أوْ مناهجَهم ـ فقد يَقبلون باطلاً، وقد يُنكِرون حقاً ـ ولكنه ميزانُ الله وشريعتُه سبحانه... لأنَّ اللّهَ عليمٌ حكيم: ﴿قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾.

* * *

(١) سورة المجادلة: الآية ٢.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

[١٧]

«نفد . . . و . . . نفذ»

وردتْ اشتقاقاتُ كلمةِ «نَفَدَ» خمسَ مرات في القرآن.

قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾(٤).

ومعنى «نَفِدَ» واشتقاقاتِها في المواضعِ السابقة: فَنِيَ وانْتَهى وأُتِيَ عليه ولم يَبْقَ منه شيء.

وقد استعملَ القرآنُ كلمةً أُخرى، مقارِبَةً من «نَفِدَ» في البناءِ والتركيبِ والحروفِ، لكنها مخالفةٌ لها في المعنى، وهي كلمة «نَفَذَ».

وقد وردتْ استعمالات كلمةُ «نَفَذَ» ثلاثَ مرات، في آيةٍ واحدةٍ في القرآن!!

---

(١) سورة النحل: الآية ٩٦.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٣) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٤) سورة ص: الآية ٥٤.

قال تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾[1].

ومعنى «نَفَذَ» اخترقَ من جهةٍ إلى جهةٍ أُخرى.

وهناكَ صلةٌ بينَ معنى الكلمتَيْن «نَفِدَ» و«نَفَذَ»، فالشيُ عندما ينفُذُ من المكانِ ويخترقُه إلى غيره، فإنه يكونُ قدْ «نَفِذَ» فالشيُ عندما ينفُذُ من المكانِ ويخترقُه إلى غيره، فإنه يكونُ قدْ «نَفِدَ» وانتهى من مكانِه الأوَّل، لأنهُ جاوَزَه إلى المكانِ الجديد.

ولا نَنسى أَنَّ تركيبَ الكلمتين يشاركُ في إلقاءِ ظلالِ المعنى.

فالدّالُ في كلمة «نَفِدَ» بدونِ نقطةٍ فوقَها، وكأنَّ النقطةَ «نَفِدَتْ» وانتهتْ وتلاشَتْ.

والذالُ في كلمة «نَفَذَ» بنقطةٍ فوقَ الحرف، وكأنَّ النقطةَ «نَفَذَتْ» من الحرف واخترقَتْه، وجاوزتْه لتكونَ فوقَه!

* * *

(١) سورة الرحمن: الآية ٣٣.

[١٨]

«مس . . . و . . . لمس»

فرَّقَ القرآنُ بين كلمتيْن، تتعلَّقان بالصلةِ بينَ الرجالِ والنســاء، وما قـد يترتَّبُ عليهما من أحكامٍ فقهية، من حيثُ الوضوء والغسل.

وهاتان الكلمتان هما: «مَسَّ» و «لَمَسَ».

ولمعـرفةِ الفـرْقِ بينهمـا، نـنـظرُ في سيـاقِ ورودِ كـلٍ واحـدةٍ منهمـا في الأسلوبِ القرآني.

استُعمِلَت كلمةُ «مسَّ» عدةَ استعمالات في القرآن، والـذي يَعنينا منهـا هنا ورودها بشأنِ الصِّلة بين الرجالِ والنساء فقط، ولـذلك لنْ نبحثَ هنـا في المعاني الأُخرى التي وردتْ فيها.

لقـدْ وردتْ كلمـةُ «مَسَّ» بشــأنِ الصلةِ بينَ الـرجــلِ والمـرأة، بمعنى الجمـاعِ والمعاشرةِ الجنسية.

قـالَ الإمامُ الـراغب في معنى «المسّ» في القرآن: «المسُّ يُقـالُ فيمـا يكـونُ معـه إدراكٌ بحــاسَّـةِ اللَّمس. وكُنيَ بــه عن النكـاح، فقيــل: مَسَّهـا وماسَّها»(١).

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٤٦٧.

«المَسّ في السياق القرآني: المعاشرة الجنسية»

استُعملتْ «مسَّ» بمعنى المعاشرةِ الجنسية في الآيات التالية:

١ ــ عندما واجَهَ جبريلُ مريمَ وبشَّرَها بأن اللَّهَ سيهبُ لَها ولداً، تعجَّبتْ وتساءلَتْ: كيفَ يكونُ لها ولد، وهي عذراء، لم تتزوج، ولم تعاشِر رجلاً؟

قال تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾[2].

إنَّ مريم تنفي بقولِها: «لَمْ يَمْسَسْني بَشَرٌ» الجماعَ وَالمعاشرةَ الزوجية، ولا تنفي بذلكَ مجرَّدَ اللمسِ أو المصافحة، فقد كانت تصافحُ أقاربَها من الرِّجال.

٢ ــ حرَّم اللَّهُ الظِّهار ــ وهو أنْ يشبِّهَ الرجلُ امرأتَه بأَحَدِ المحارم، كأنْ يقولَ لها: أَنتِ عليَّ كظهرِ أمي ــ، وأَوْجَبَ على الزوج إذا ظاهَرَ أنْ يدفع الكفارة.

وكفارةُ الظهار مرتَّبة:

- عليه أنْ يعتقَ رقبةً قبلَ معاشرته لزوجته: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾[3].
- فإنْ لم يجدْ رقبةً فعليهِ صيامُ شهريْن متتابعيْن قبلَ معاشرتِه لزوجته.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٤٧.

(٢) سورة مريم: الآية ٢٠.

(٣) سورة المجادلة: الآية ٣.

● فإنْ لم يستطعْ فعليهِ أنْ يُطعمَ ستّين مسكيناً: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[1].

فقدْ أطلقت الآياتُ هنا كلمة «المسّ» على المعاشرةِ الجنسيةِ الزوجية بين الرجل والمرأة.

٣ ــ إذا طَلَّقَ الخاطبُ خطيبَتَه قبلَ الدخول بها، وقبلَ معاشرتها معاشرةً جنسية زوجية فلا عِدَّةَ عليها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾[2].

كما أنَّ الخاطبَ إذا طلَّقَ خطيبتَه قبلَ الدخول والمعاشرةِ الزوجية، فعليه أنْ يدفعَ لها نصفَ مهرِها: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾[3].

ونلاحظُ أنَّ الآيتَيْن المذكورتَيْن استخدمَتا كلمةَ «المسِّ» في التعبيرِ عن الجماعِ والمعاشرةِ الزوجية ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾.

ولهذا نقولُ مطمئنين: استُخْدِمَتْ كلمةُ «المسِّ» في التعبيرِ عن الصلةِ بين الرجلِ والمرأة، بمعنى: الجماعِ والجنس والمعاشرة الزوجية.

ننتقلُ الآنَ لننظرَ في كلمة «لَمَسَ».

ويعنينا استخدامُ هذه الكلمة في الصِّلةِ بين الرجلِ والمرأة.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٩.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٣٧.

«اللمس في السياق القرآني: المصافحة»

وردتْ كلمةُ «لَمَسَ» في الصلةِ بينَ الرجل والمرأةِ مرّتيْن في القرآن:

١ ـ قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[2].

وبالنظرِ في الآيتيْن نرى أنَّ قولَه ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّساءَ﴾ وردتْ في الآيتيْن في سياقٍ خاص. وهو بيانُ الأسبابِ الموجبةِ للوضوء ـ نواقضِ الوضوء ـ حيثُ ذُكرتْ هذه النواقضُ قبلَها.

والمرادُ بالملامسة: التقاءُ بَشَرَتي الرجلِ والمرأة، سواءٌ كانَ بالمصافحةِ باليد، أو غيرها.

«لمس المرأة الأجنبية ينقض الوضوء»

وبما أنَّ الكلمةَ «لامَسْتُم» وردَتْ في سياقِ نواقضِ الوضوء، فإننا نقول: إنَّ لَمْسَ المرأةِ الأجنبية ـ غيرِ المحرَّمةِ على الرجل ـ ينقضُ وضوءَ كلٍّ من الرجل والمرأة.

---

(١) سورة النساء: الآية ٤٣. (٢) سورة المائدة: الآية ٦.

وفعلُ «لامَسْتُمْ» يدلُّ على المشاركة بينَ كلٍّ منَ اللامس والملموس، وتوفُّرِ الملامسة بينهما، وقصْدِها وإرادتِها وتحقُّقِها. وهذا الفعلُ «لامستم» يُخْرِجُ اللمسَ، إذا كان عَرَضيّاً بدونِ إرادة أو قصد.

وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ لكلمةِ «لامَسْتُم» في نواقضِ الوضوء يجعَلُنا نرجِّحُ المذهبَ الشافعيَّ في جعلِ لمس المرأة الأجنبية بدونِ حائل، ناقضاً للوضوء.

«إبطال اعتبار اللمس للجماع»

وهذا الاستعمالُ القرآنيُّ لكلمةِ «لامسْتُم» في نواقضِ الوضوء، يجعلُنا نَرُدُّ مذهبَ الأحنافِ في اعتبارِ اللَّمسِ بمعنى الجماع ـ مثلِ المسِّ ـ وفي اعتبارِ المُرادِ بقوله: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النساء﴾، أيْ: جامعتُمُ النساء.

نَرُدُّ هذا الفهمَ للسادةِ الأحنافِ لمعنى «اللمس» للأسبابِ التالية:

١ ـ الدقةُ القرآنيةُ المعجزةُ في استعمالِ المفرداتِ، حيثُ أَورد القرآن «مسَّ» بشأنِ الصلةِ بين الرجل والمرأة بمعنى الجماع. وأوردَ «لَمَسَ» بمعنى المصافحةِ واللمس باليد.

٢ ـ وجوبُ البحثِ عن الفروقِ بين الكلمتين «مَسَّ» و «لَمَسَ»، لأنهُ لا ترادفَ بين الكلماتِ القرآنية، ولا بدَّ من إمعانِ النظر لاستخراجِ الفروقِ بين الكلماتِ المتقاربة.

٣ ـ لو كانَ المرادُ بقوله: ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الجماع، الموجب للغسل بسبب الجنابة ـ كما يقولُ السادة الأحناف ـ لكانَ في الآية تكرارٌ، وذلك لأنَّ الآيةَ نصتْ على الجنابة قبلَها، حيثُ قالتْ: ﴿وَلا جُنُباً إلاَّ عابِري سَبيلٍ حَتّى تَغْتَسِلوا﴾، وقالتْ آيةُ المائدة: ﴿وَإنْ كُنْتُمْ جُنُباً فاطْهَّروا﴾.

فلا بدَّ مِنْ جعلِ الملامسةِ بمعنى المصافحة وليسَ الجماع، نفياً

للتكرارِ عن القرآن، واعتبار كلِّ جملةٍ في الآيةِ تقدِّمُ معنى جديداً.

ونحبُّ أنْ نقرِّرَ هنا: أنه لم يصح حديثٌ واحدٌ عن رسول الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ كما يقولُ الإمامُ النووي ـ في عدمِ وضوءِ رسولِ الله عليه السلام من لَمْسِ إحدى زوجاته، ولو صحَّ حديثٌ ـ سَنَداً وَمَتْناً ـ لقُلْنا به، واعتَبَرْنا السنةَ الصحيحةَ ناسخةً للحكم القرآني(١).

والخلاصةُ: أَنَّ القرآنَ فرَّقَ بينَ الكلمتين «مَسَّ» و«لَمَسَ» بشأن الصلة بين الرجل والمرأة.

فأوردَ كلمةَ «مَسَّ» بمعنى الجماعِ والمعاشرةِ الجنسيةِ الزوجية.

وأوردَ كلمةَ «لَمَسَ» بمعنى المصافحةِ والتقاءِ البشرةِ بالبشرةِ!!

* * *

(١) انظر مناقشة الإمام النووي للأحاديث الواردة في اللمس في كتابه «المجموع»: ٢/٣٠ ـ ٣٤.

[١٩]
«الكُره . . . و . . . الكَرْه»

الكُرْهُ: بضمِّ الكاف. والكَرْهُ: بفتحِ الكاف.

كلمتـانِ متقاربتانِ في البناءِ، وتـركيبِ الحروف، وشكـلِ الحـركـات، ومتقاربتانِ أيضـاً في المعنى. لكنْ بينهما فـروق. ونستخرجُ هـذه الفروق من النظرِ في السياقِ القرآني الذي وردتَا فيه.

«الكُره: المشقة المرغوبة»

وردتْ كلمةُ الكُرْهِ ـ بضمِّ الكاف ـ ثلاثَ مرات.

الأولى: في تكليفِ القتال الشاقّ: قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[١].

إنَّ تكليفَ القتالِ شاقٌ على النفس، ولهذا تراهُ صعْباً شاقّاً ثقيلاً، وقـد تكرهُه بعضُ النفوس وبخاصةٍ ضعاف الإيمان، وقد تتثاقلُ عنه وتتباطأُ نفوس، وقد تتخلّى عنه وتتركُه نفوس.

ولكنَّ النفسَ المؤمنـة تنفِرُ إليـه وتقومِ بـه وتمارسُـه، أيْ: إنهـا تـطلبـه وتُريده رغمَ مشُقته وصعوبته.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

ولهـذا وُصِفَ بأنـه «كُره» بضمِّ الكـاف، أيْ: إنـهُ ثقيـلٌ وشـاقٌّ، لكنـه مطلوبٌ مُرادٌ منْ قِبلِ المجاهدين الصادقين، لما يترتبُ عليـه من آثارٍ ونتـائجَ وثمارٍ وإيجابياتٍ في الدنيا والآخرة.

الثانية والثالثة: وردتْ كلمتانِ في الحديثِ عن حمْـل المرأة ووضْعِهـا، قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾[1].

إنَّ حمـلَ المرأة بجنينِهـا شاقٌّ صعبٌ مُتعبٌ مُـرهق، يُضعف جسمَهـا، ويؤثّر في أعصابِها ونفسيَّتها، وقد يصيبُها بالأمراض، وقد يُوْدي بحياتها.

وقلْ مثلَ هذا في آلامِ المخاض، وأَوجاعِ «الطَّلْق»، ومشقَّـةِ الوضـع، الذي تُعاني منه المرأةُ ما تعاني.

لكنْ ألا ترغبُ المرأة في الحملِ والإنجاب؟ ألا تحبُّـه وتُريـده وتطلبـه وتسعى إليـه؟ ألا تلتذُّ بـه وتستعـذِبُـه وتشتـاقُ إليـه؟ وإذا مضىٰ عليهـا شهـورٌ أو سنوات بدون حمل ألا تبذلُ جهدَها في ذلك، وتذهبُ لأَمهرِ الأَطباء؟ وهي عندما تضعُ تصرخُ أنها إنْ قامت سالمة لن تحمـل أبداً، ثم تنسى هـذه الآلامَ والأوجاعَ بعدَ نَفاسِها، وتطلبُ الحمل وتريده!!

سبحانَ من جعلَ الحملَ والإنجاب حـاجةً فطرية في كـلِّ امرأةٍ سليمـةٍ سويّة، لتستمرَّ الحياة!

لهـذا عبَّر القـرآنُ عن حملها ووضْعهـا بأنـه «كُره»، أي أنَّـه فيـه مشقـةٌ وصعوبةٌ، وثقل، فيه آلامٌ وأوجاعٌ وأخطار، لكنه مع ذلكَ مرغوبٌ عند المـرأة ومطلوبٌ ومُراد.

---

(١) سورة الأحقاف: الآية ١٥.

لقدْ أَطلقَ القرآن كلمةَ «الكُره» وصْفاً على الأمرِ الذي فيه مشقَّةٌ وصعوبة، فيه ألمٌ ومعاناة، لكنه مطلوبٌ من قِبَل صاحبه ومرغوبٌ عنده، أيْ: إنَّ صعوبتَه مقرونةٌ بالإرادة والرغبة، بل باللَّذَّةِ والشَّوْق!

«الكَره: الإكراه»

وننتقلُ الآن إلى الكلمة الأخرى «الكَره» ــ بفتح الكاف ــ.

وردَتْ هذه الكلمةُ خمسَ مرات في القرآن:

١ ــ طلبَ اللَّهُ من السمواتِ والأرض أن تستلمَ له: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾[1].

٢ ــ بيَّنَ القرآنُ إسلامَ كلِّ المخلوقاتِ لله: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[2]

٣ ــ بيَّنَ القرآنُ سجودَ كلِّ المخلوقاتِ لله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾[3].

نلاحظُ في الآياتِ الثلاثة ورودَ كلمةِ «كَرْه» بمعنى الإكراهِ والإجبارِ والقَسْرِ، وذلكَ لأنَّ الأَمْرَ والتكليفَ جاءَ من الخارج.

الكافرُ أسلمَ لله ــ أي استسلمَ له ــ رغمَ أنفه، وهو كارهٌ رافض، وكان استسلامُه في الجانب اللاّإرادي من كيانه ــ مثلِ أجهزةِ جسمه ونواميسِ حياته ــ لهذا اعتُبر استسلامُه «كَرْهاً» بفتح الكاف.

وهو يسجدُ لله مُكْرَهاً مجبَراً رغمَ أنفه، والمرادُ بالسجود هنا الخُضوع،

---

(١) سورة فصلت: الآية ١١.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

(٣) سورة الرعد: الآية ١٥.

وهو يتناولُ خُضوعَ الجانب اللاّإرادي من كيانِه أيضاً، ولهذا اعتُبر سجودُه وخضوعُه «كَرهاً» بفتح الكاف.

وليسَ هكذا استسلامُ المؤمن وإسلامُه لله، ولا هكذا سجودُ المؤمن وخضوعُه لله، ولهذا وصفَه القرآن بأنه «طَوْعاً»، وجعلَه مقابلاً ومضاداً لاستسلامِ الكافر وخضوعِه الجبري لله.

٤ ــ بيَّن القرآن أنَّ إنفاق المنافقين لأموالِهم غيرُ مقبول، وإنْ زعموا أنَّه في سبيلِ الله، لأنَّ ذلك الإنفاقَ لم يصدر عن إيمان في قلوبهم، ولهذا أمَرَنا أنْ نقولَ لهم: ﴿أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٣﴾[1].

وكأن الآيةَ تشيرُ إلى أَنَّ إنفاق المنافقين رغم أُنوفهم، إنفاقٌ بسببِ القسرِ والإجبارِ والإكراه، وذلكَ لأنهم يريدون به التمويهَ على المسلمين، ولهذا وُصِفَ إنفاقُهم بأنه «كَره» بفتح الكاف.

٥ ــ نهى القرآنُ عن «وِراثة» المرأة، كما يُورَثُ الأثاثُ والمتاع. فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا﴾[2].

لقدْ كانَ الإنسانُ الجاهليّ إذا مات أبوه، فإنه يرِثُه في كلِّ ما خلَّفَ وراءَه، يرثُ أموالَه ومتاعَه، ومن جملةِ ما يرثُ زوجةَ أبيه، بأَنْ يضَعَ ثوبَه عليها، فتكون له من جملةِ الموروثات، ولهذا نهى اللّهُ المؤمنين عن هذا التصرُّفِ الجاهليِّ البشع، وحرَّمه عليهم.

وطبعاً ترفضُ المرأةُ هذا التصرفَ وتكرهُه، لأنَّه إجبارٌ وقسر لها. ولهذا سمّاه القرآنُ «كَرْهاً» بفتحِ الكاف.

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥٣.

(٢) سورة النساء: الآية ١٩.

إذن «الكُرْهُ» بالضمِّ: الأمرُ الشاقُّ الصعبُ لكنه مرغوبٌ ومطلوب.

و «الكَرْهُ» بالفتح: الأمرُ المكْروهُ المرفوضُ الذي يأتي من الخارج، ويحملُ طابعَ الإكراه والجبرِ والقسر.

ونختمُ كلامَنا عن الفرقِ بين الكلمتَيْن بذكرِ كلامِ الإمام الراغب الأصفهاني في التفريقِ بينهما.

قال: «الكَرْهُ: المشقةُ التي تنالُ الإنسانَ من خارجٍ، فيما يُحملُ عليهِ بإكراه.

والكُرْهُ: ما ينالُه من ذاته، وهو يَعافُه.

وذلك على ضربيْن:

أَحَدهما: ما يُعافُ من حيثُ الطبع.

والثاني: ما يُعافُ من حيثُ العقل أو الشرع.

ولهذا يصحُّ أَنْ يقولَ الإنسانُ في الشيءِ الواحد: إني أُريدُه وأَكرهُه، بمعنى أني أُريدُه من حيثُ الطبع، وأكرهُه من حيث العقل أو الشرع، أو أُريده من حيثُ العقل أو الشرع، وأكرهه من حيثُ الطبع»[1].

* * *

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٤٢٩.

[٢٠]

«الجسم . . . و . . . الجسد»

الجسمُ والجسدُ. كلمتانِ متقاربتانِ في الحروف وفي المعنى، وتُطلقان على بدنِ الإنسان.

لكنْ ما هوَ الفرقُ بينهما في القرآن، ومتى يُسمّى بدنُ الإنسان جسماً، ومتى يسمّى جسداً؟

«الجسم: البدن فيه حياة»

وردتْ كلمةُ الجسمِ مرتيْن في القرآن:

قال تعالى عن «طالوت» مبيّناً مؤهّلاته ليكونَ ملِكاً على بني إسرائيل:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾[١].

وقالَ تعالى عن اهتمامِ المنافقين بأجسامِهم على حسابِ قلوبهم، واهتمامِهم بالصورة والشكل على حسابِ المعنى والمضمون: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[٢].

ونلاحظُ من الآيتين أنهما تتحدثان عن الأحياء، فطالوتُ مَلِكٌ حيٌّ، والمنافقونَ أحياءٌ يتكلمون، وأطْلَقَتا على الأبدان في هذه الحالة كلمة «أجسام».

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٧.

(٢) سورة المنافقون: الآية ٤.

«الجسد: البدن جثة هامدة»

أمّا كلمةُ «جَسَد» فقد وردَتْ أربعَ مرات في القرآن.

وردتْ مرتيْن في وصفِ العجل «التمثال» الذي صنعه «السّامِريّ» من الذهب لبني إسرائيل، ودَعاهم إلى عبادته، مستغِلاً غَيْبة موسى ـ عليه السلام ـ.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ﴾[1].

وقالَ تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا﴾[2].

وَأُطلقتْ كلمةُ الجسد على ابنِ سليمان ـ عليه السلام ـ الذي وُلِدَ مَيْتاً مشوَّهاً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤﴾[3].

وفصَّلَ رسولُ الله ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ قصَّةَ المولودِ الجَسَدِ الميْت... فقدْ روى البخاريُّ، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبيِّ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم قال: «قالَ سليمانُ بنُ داود: لأَطوفَنَّ الليلةَ على سبعين امرأة، تحملُ كلُّ امرأةٍ فارساً يجاهدُ في سبيلِ الله. فقال له صاحبه: إنْ شاءَ الله. فلمْ يقُلْ: [أي نسيَ أنْ يقولَ ذلك] ولم تحمِلْ شيئاً، إلاَّ واحداً، ساقطاً أَحدُ شقَّيْه» فقالَ النبيُّ ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ «لو قالَها لجاهَدوا في سبيلِ الله»[4].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٤٨.

(٢) سورة طه: الآيتان ٨٨، ٨٩.

(٣) سورة ص: الآية ٣٤.

(٤) صحيح البخاري: (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء، (٤٠) باب قول الله ﴿ووهبنا لداود سليمان﴾، حديث رقم: ٣٤٢٤.

لقد أرادَ سليمان ــ عليه السلام ــ أن يكونَ له سبعون ولداً ليكونوا فُرساناً مجاهِدين في سبيل الله. ولهذا طافَ على سبعين زوجةً له في ليلةٍ واحدة. ولكنهُ نسيَ أنْ يقولَ: إنْ شاءَ الله. فابتلاهُ الله وفتَنه. ولم تحملْ من السبعين إلاّ واحدة، فلمّا وضَعتْ حملَها كانَ مولوداً مَيْتاً، ساقطاً أحدُ شقَّيْه، فأُلقِيَ على كرسيِّه «جَسَداً» ساكناً، وجثّةً هامدة!

والمرةُ الرابعة التي وردتْ فيها كلمةُ «جسد»: في بيانِ أنَّ الأنبياءَ كانوا رجالاً أحياء، ذَوي أَجسام متحركة، ولم يكونوا «أَجساداً» هامدة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ۝٨﴾[1].

من هذا نعلمُ أنَّ كلمةَ «جسد» في السياقِ القرآني وردتْ صفةً للجماد، وللمَيْت، ونُفِيَتْ عن النبيِّ الحيِّ المتحرِّك.

وبهذا نعرفُ الفرقَ بين الجسم والجسد في القرآن.

فالجسمُ يُطلَقُ على البدنِ الذي فيه حياةٌ وروحٌ وحركة.

والجسدُ يطلَقُ على التمثالِ الجامد، أو بدنِ الإنسان بعدَ وفاته وخروجِ روحه!

* * *

(١) سورة الأنبياء: الآيتان ٧، ٨.

[٢١]

«الذَّنوبُ . . . و . . . الذُّنوب»

«الذَّنوب» و «الذُّنوب»: كلمتانِ متقاربتان، مشتقّتانِ من «الذَّنَب».

قالَ الإمامُ الراغب في «المفردات»: «ذَنَبُ الدابّةِ وغيرِها معروف، ويعبَّرُ به عن المتأخّر والرَّذْلِ. يُقال: همْ أذنابُ القوم.

والذَّنوب: الفرسُ الطَّويلُ الذَّنب. والدَّلْوُ التي لها ذَنَب.

واستُعيرَ للنَّصيب.

والذَّنْبُ ـ في الأصل ـ الأَخْذُ بذَنَبِ الشيء. ويُستعمَلُ في كلِّ فعلٍ يُستوْخَمُ عُقْباه، اعتباراً بذَنَب الشيء.

وجمع الذَّنْبِ: ذُنوب»(١).

وردتْ كلمةُ «ذَنوب» في القرآن مرتيْن في آيةٍ واحدةٍ. قال تعالى:

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ۝٥٩ ﴾(٢).

أيْ: للَّذينَ ظَلَموا نصيباً من العذاب، وحصَّةً من المسؤولية، مثلَ نصيبِ وحصَّةِ أَصْحابهم الظالمين الآخرين.

إذَنْ «الذَّنوب» هي الدَّلْوُ طويلةُ الذَّنب، والنصيبُ الذي يوقِعُ صاحبَه في التَّبعة والمسؤولية، وكأنَّ له ذَنَباً.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ١٨١.

(٢) سورة الذاريات: الآية ٥٩.

أما «الذُّنـوب» بالضم، فهي جمـعُ ذَنْب، وقد ورَدَتْ في القـرآن ــ في حالةِ الجمع ــ ستّاً وعشرين مرة. كقوله تعالى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾[1].

وهنـاكَ صلةٌ بينَ الكلمتيْنِ «ذُنـوب» التي هي جمـعُ «ذَنْب» و «ذَنـوب» التي هي مفردٌ بمعنى «الذَّنَب»، وكأنَّ الإنسانَ عندما يَعصي ويخـالفُ، يأخـذُ بذَنَبِ الأشياء، ومؤخَّرِ الأقوالِ، وتافِهِ الأفعال، وساقطِ الأفكار.

وكأنَّ «الذَّنوبَ» دَلوٌ، توضَعُ فيه ذُنوب المذْنِبين ليُحاسَبوا عليها!

* * *

(١) سورة الأنفال: الآية ٥٢.

[٢٢]

«شرى . . . و . . . اشترى»

«شَرى» و «اشْتَرى»: كلمتان متقاربتان أَصْلُهما واحد، لكن بينَهما تَضادّ في المعنى وفي الأسلوب القرآني.

«شرى بمعنى باع»

«شَـرى» في القرآنِ بمعنى «بـاع»، أيْ: بذلَ السِّلْعةَ ليأخذَ مقابلَها الثمن.

وقد وردتْ «شَرى» أربعَ مرّات في القرآن، وكلُّها بمعنى «باع».

منها قولُه تعالى عن الذين باعوا «يوسف» ــ عليه السلام ــ وهو صغير:

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾[1].

أيْ: باعوهُ مقابلَ الثمن.

ومنها قولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ﴾[2]، أيْ: يبيعُ نفسَه لله، لنيلِ مرضاته.

ومنها قولُه تعالى: ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ﴾[3]، أيْ: لا يقاتلُ في سبيل الله حقاً، إلاّ

(١) سورة يوسف: الآية ٢٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٧.
(٣) سورة النساء: الآية ٧٤.

الصادقون الذينَ يَبيعونَ حياتَهم الدنيا لله، لينالُوا النعيمَ الخالدَ في الآخرة.

ونلاحظُ أنَّ «الباءَ» ــ باءَ البدل أو باءَ المعاوضة ــ دخلتْ على المادة التي أخذوها من المعاوضة، وليست التي تركوها.

«اشترى: أخذ»

أما فعلُ «اشْتَرى» فإنها بمعنى أخذَ المادةَ المشتراة، ودَفعَ الثمن الذي معه.

وقد وردتْ اشتقاقاتُ هذه المادّة إحدى وعشرين مرة، وكلُّها وردتْ فيها بهذا المعنى.

من ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾[1]، أيْ: الَّذي اشْتَرى يوسفَ من الذين شَرَوْه.

ومنهُ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾[2].

إنَّ اللَّهَ الكريم هو الذي اشْترى ــ سبحانه وتعالى ــ من المؤمنين أَنفسَهُم وأموالَهم، وأعطاهم الثمنَ وهو الجنةِ. وهذا تقريبٌ لقبولِه سبحانَه أعمالَهم الصالحة، ومَنْحِهِم مقابلَها الثوابَ والنعيم.

ومن الأمثلةِ على ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾[3].

---

(1) سورة يوسف: الآية ٢١.

(2) سورة التوبة: الآية ١١١.

(3) سورة آل عمران: الآية ١٧٧.

«باء المعاوضة بين شرى واشترى»

وإذا كانتْ «باءُ المعاوضةِ» في فعلِ «شرى» تدخلُ على المادةِ المشتراة المأخوذة، فإنَّ هذه الباءَ في فعلِ «اشْترى» على العكس، تدخـلُ على المادة المباعة المتروكة.

قالَ تعالى عن تِجارةِ المنافقين الخاسرة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾[1].

وقالَ تعالى عن اليهود: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾﴾[2].

إذنْ «شَـرى» في القرآنِ بمعنى «بـاع» وتـدخـلُ «بـاءُ المعـاوضـة» على المادةِ المشتراة.

و «اشْتـرى» في القرآن بمعنى «اشْتـرى» وتدخـلُ «باءُ المعـاوضة» على المادةِ المُباعة المدفوعةِ أو المتروكة.

بقيَ أن نـوردَ كـلامَ الإمـام الـراغب في الصِّلة بين الكلمتين: «الشِّـراءُ والبيعُ يتلازمان، فالمشْتَـري دافعُ الثَّمنِ وآخِـذُ المُثْمَنِ. والبائـعُ دافعُ المُثْمَنِ وآخِذُ الثُمَن.

أما إذا كانت المبـايعةُ سلعـةً بسلعة، صـحَّ أَنْ يُتَصَوَّرَ كـلُّ واحدٍ منهمـا مشترياً وبائعاً.

ومن هذا الوجـهِ صارَ لَفظُ البيـع والشراء يُستعمـلُ كلُّ واحـد منهما في موضعِ الآخر، وشريتُ بمعنى بعتُ أكثر. وابْتَعْتُ بمعنى اشتريتُ أكثر»[3].

* * *

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٧٥.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٦٠.

[٢٣]

«العمى . . . و . . . العمه»

معلومٌ أنَّ «العمى» هـو فقدانُ البصـر. وقد استُعمـلَ في القـرآن بمعنى فقْـدِ البصـر. كما في قـولـه تعالى: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ ﴾(١). وهـو الصَّحـابـيُّ الأعمى «عبدُ الله بن أمِّ مكتوم» ـ رضي الله عنه ـ.

وكثيراً ما وردتْ كلمـة «العمى» واشتقاقـاتُها في القـرآن، بمعنى فُقدانِ البصيرة، أو عَمى القلب. كما في مثلِ قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ﴾(٢).

وكقولِه تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ ﴾(٣).

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾(٤).

أمـا «العَمَهُ» فقـد وردتْ منها صيغـةُ الفعل المضـارع «يَعْمَهُونَ». وقـد وردتْ «يعمهون» سبع مرات. ومعظمُ المرات مسبوقةٌ بالـطغيان ﴿في طُغْيـانِهِمْ يَعْمَهون﴾.

---

(١) سورة عبس: الآيتان ١، ٢.
(٢) سورة الرعد: الآية ١٩.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٢.
(٤) سورة الحج: الآية ٤٦.

ومعنى «العَمَه» ــ كما يقولُ الراغب ــ هو: «التَّرَدُّدُ في الأمرِ، من التحيُّر»[1].

والتردُّدُ والتحيُّر يُصيبُ القلبَ والعقلَ والفكرَ والتصور. ولهذا لا نخطىءُ إذا قلنا: إنَّ العمهَ هو: عمَىٰ القلب. وتكمنُ فيه الخطورةُ البالغةُ على صاحبه، لأنَّ الإنسانَ يمكنُه أَنْ يعيشَ مع العمى وفُقدانِ البصر، وقد يكونُ الأعمى صالحاً فيفوزَ بالجنة في الآخرة.

أَمّا إذا أُصيبَ الإنسانُ بالعمه، وعُمِيَ قلبُه وفَقَدَ بصيرَتَه، ووقَعَ في التَّرَدُّدِ والحَيْرةِ والضلال، فهذا هو الضَّلال والخسران المبين.

* * *

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٣٤٨.

[٢٤]
«استأنس . . . و . . . استأذن»

«اسْتَأْنَسَ» و «اسْتَأْذَنَ» فعلان، قد يظنُّ بعضُهم أنهما بمعنى واحد، وهو طلبُ الإذن في الدخول. وهذا غيرُ صحيح.

لقد استخدمَ التعبيرُ القرآنيُّ الفعلَيْن، وجعلَ لكلٍّ منهما معنى.

«استأنس: الأنس النفسي»

كلمةُ «آنَس» ـ فعلٌ ماضٍ من الإيناس ـ وردتْ ثلاثَ مرات في سياقٍ واحد، وهو قصةُ موسى ـ عليه السلام ـ فلمّا عادَ من مَدْيَنَ إلى مصر، ضلَّ الطريقَ ليلاً في الصحراء، فرأى ناراً على جبلِ الطورِ من بعيد، فلما رآها: ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾(١).

والكلمةُ فيها معنى «الأُنْسِ» النفسيّ الشعوريّ، إذِ ارتاحتْ نفسُ موسى عليه السلام لمّا رأى النارَ من بعيد، وتوقَّعَ أن يجدَ عندها الدليل.

وقد أوجبَ اللّهُ على المسلمين «الاستئناسَ» عند الدخولِ لبيوت الآخرين. فقالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾(٢).

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٩.

(٢) سورة النور: الآية ٢٧.

«استأذن : الإذن الماديّ»

كما أَوْجبَ اللّهُ على المسلمين «الاستِئذان» عندَ الدُّخول للبيوت. وورد هذا في أكثرَ من آية.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ ﴾[1].

لقد وردتْ الكلمتان في موضوعٍ واحد، وهو آدابُ دخولِ البيوت.

كلٌّ من الفعلينِ «اسْتَأْنَسَ» و «اسْتَأْذَنَ» يدلُّ على معنى الطلب ــ الهمزةُ والسين والتاء تدلُّ على الطلب ــ.

لكن «استأنسَ» يدلُّ على طلب الأُنس.

و «استأذنَ» يدلُّ على طلب الإذن.

«الفرق بينهما من وجهين»

والفرقُ بينهما من وجهين:

الأوّل: أنَّ الاستئناسَ يسبقُ الاستئذانَ، أيْ أنه مرحلةٌ أُولى، بينما الاستئذانُ مرحلةٌ ثانية.

فإذا أرادَ مسلمٌ زيارةَ أخيه في بيته، فلا بدَّ أَنْ يستأنسَ قبل أَنْ يستأْذن.

---

(١) سورة النور: الآيتان ٥٨، ٥٩.

ولهذا أوجبَ اللّهُ علينا ذلك بقوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسوا﴾.

إنهُ قبلَ أنْ يخرجَ من بيته إلى بيت أخيه «يَسْتَأْنِسُ» فيسأل نفسَه: هل يحصلُ على الأُنس عند أخيه؟ وهلْ يأْنسُ أخوه به ويأْنَسُ إليه؟ هل هذا وقتٌ مناسبٌ للزيارة؟ أمْ أنَّه غيرُ مناسب، وسيكونُ زائراً ثقيلَ الزيارة!!

فإذا توقَّعَ الأُنسَ والإيناس، واستأنسَ بالزيارة، فإنهُ يخرجُ من بيته، ويذهبُ إلى بيتِ أخيه، ويطرقُ بابه، وهذا هو الاستئذان.

ثم إنَّ الاستئناسَ حركةٌ نفسيةٌ شعورية ذاتية، بينما الاستئذانُ حركةٌ ماديةٌ عمليةٌ خارجيةٌ تتّصل بالآخرين.

الفرقُ الثاني: أنَّ «الاستئناسَ» مطلوبٌ من الزائرِ الخارجي الذي ليسَ من أهلِ البيت، ليكونَ وقتُه مناسباً للزيارة، ثم يأتي الاستئذان.

أما «الاستئذانُ» فهو حركةٌ داخلية، مطلوبٌ من أهلِ المنزل وموظفيه وخدمِه وعبيدِه: ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ مِنْكُمْ﴾، و﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنوا كَما اسْتَأْذَنَ الذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

إنَّ الاستئناسَ في التعبيرِ القرآني، للقادمِ من بعيد، في الوقتِ المناسب، قبلَ الاستئذان، وعندَ وقوفه على بابِ البيت.

أمَّا الاستئذانُ فهو لمَنْ كانَ داخلَ البيت، يطرقُ الأبوابَ الداخليةَ لحُجُرات البيت! ـ والله أعلم ـ.

* * *

[٢٥]
«الفتية . . . و . . . الفتيان»

«الفِتْيَةُ» و «الفِتْيان» صيغَتا جمعٍ لمفردٍ واحد هو «فَتىً».

لكن بيْن الجمعيْن فرق.

«الفتية : الشباب المؤمنون»

كلمةُ «فتية» وردَتْ مرتيْن في سورة الكهف، وأُطْلقَتْ على أهلِ الكهفِ، الشبابِ المؤمنين الصالحين، الذين اعتزلُوا قومَهم الكفار، وذهبوا إلى الكهف ليحافظوا على إيمانهم ودينهم.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾[1].

وقالَ تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾[2].

وقد استَخْدمتْ سورةُ الكهف المفردَ «فتى» في سياقِ المدح، وعبَّرتْ به عن الشابِّ المؤمن «يوشعَ بن نون». قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾[3].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٣.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦٠.

«الفتيان : الخدم»

أمّا كلمةُ «فِتيانِ» فقد وردَتْ مرةً واحدةً في سورة «يوسف»، وأُطلقَتْ على الخدمِ الذين يعملونَ عندَ «يوسف» ـ عليه السلام ـ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَـٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَـٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ ﴾[1].

وقد استَخْدَمَتْ سورةُ يوسف تصريفاتِ الفتوّة، بمعنى العبودية.

فيوسُف ـ عليه السلام ـ فَتى لامرأةِ العزيز، أَيْ: عبدٌ لَها وخادمٌ في بيتها: ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[2].

ودخل السجنَ مع يوسف «فَتَيانِ» خادمان عبدان للمَلِك: ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾[3].

نخلصُ من هذا إلى القول:

الفتوّةُ المؤمنةُ الصالحةُ وردَتْ في سورةِ الكهف مَدْحاً لصاحبِها «فِتْيَة»!

والفتوةُ التي تقومُ على الرِّقِّ والعبودية، وردتْ في سورةِ يوسف «فِتْيانِ»!

* * *

(1) سورة يوسف: الآية ٦٢.

(2) سورة يوسف: الآية ٣٠.

(3) سورة يوسف: الآية ٣٦.

[٢٦]

«الأَمْن . . . و . . . الأَمَنة»

قد يعتبرُ بعضُهم «الأَمْنَ» و «الأَمَنَة» بمعنى واحد. وهذا غيرُ دقيق.

لقد وردت الكلمتانِ في الأُسلوب القرآني في سياقين:

«الأمن: الطمأنينة مع زوال سبب الخوف»

وردتْ كلمـةُ «الأَمْن» خمسَ مرات، وهي تقـرِّر وصولَ الأمن والأَمـان للإنسان.

من ذلكَ قولُه تعالى: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

لقـد وردَ هذا التقـريرُ على لِسـانِ «إبراهيم» ــ عليـه السلام ــ عنـدما، هدَّدهُ قومُه وخوَّفوه، فردَّ عليهم بأَنْ بيَّن لهم مَنْ هو الأَوْلى بالخوف، ومَنْ هـو الجديرُ بالأمن: ﴿فَأَيُّ الفَريقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ؟﴾.

ثم قدَّمَ لهمُ الجوابَ القاطع الدائم: ﴿الَّذينَ آمَنـوا وَلَمْ يَلْبِسوا إيمـانَهُمْ بِظُلْمٍ، أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ﴾.

ومعنى هذا: حصولُهم على الأمن وتمتُّعهم به، وزوالُ الخوفِ وأسبـابِه عنهم.

وقال ــ تعالى ــ يمتنُّ على المؤمنين: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟

---

(١) سورة الأنعام: الآيتان ٨١، ٨٢.

ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾(١).

وفي الآيـة تصـريحٌ بتبـديلهم أَمْنـاً بعـدَ الخـوف، أيْ أنَّ الأَمْنَ يعقبُ الخوفَ، فيزيلُه ويزيلُ أسبابَه.

«الأمنة: الطمأنينة مع وجود سبب الخوف»

أمّـا كلمةُ «أَمَنَـة» فقـد وردَتْ مـرتيْن في القـرآن. والمـرَّتـان في سيـاق واحد، تتحدَّثان عن موضوعٍ واحد.

إنَّهمـا تتحـدثـان عن تثبيتِ الله للمسلمين في معـاركِهم مـع الكفـار، وإنزالِه ـ سبحانه ـ الجنـودَ الربـانيّين ليكونـوا معهم، مثلَ المـلائكةِ والمطرِ والنُّعاس!

قال تعالى عن تثبيتِ المؤمنين في «بدر»: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾(٢).

وفي معركةِ «أُحُدٍ»أيضاً، أنزلَ اللّهُ على المؤمنين النعاسَ، ليزولَ غمُّهم ويشعُروا بالأَمَنة، قالَ تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾(٣).

لقـدْ جعلَ اللّهُ النعـاسَ يغشى المؤمنين المقاتلين في «بـدر» و «أُحُد»، ليزيلَ شعورَهم بالخوف، ويزيلَ ما شَعَروا به من الغمِّ.

---

(١) سورة النور: الآية ٥٥.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

إنه من المعروفِ أنَّ الخائفَ لا ينام، ولا يأتيه النومُ ولو استجلَبَه، ومن المعروف كذلكَ أنَّ المغمومَ لا ينـام. ولكنَّ الله جعلَ الصحـابةَ الخـائفين في «بدر» ينعَسون ليُزيلَ عنهم مشـاعرَ الخـوف. وجعلَ الصحـابةَ المغمـومين في «أُحُد» ينعَسون، ليزيلَ عنهم الشعورَ بالغم.

لكنْ هل زالتْ عنهم ـ في غزوَتَيْ «بدر» و «أُحُد» ـ أسبابُ الخوف؟

إنَّ أسبـابَ الخوف مـا زالتْ مـوجـودة، لأنهمُ في المَيْـدانِ على أرض المعركة، وهي ما زالتْ مستمرة مع الأعداء.

إنَّ «الأَمَنَـة» هي شعورُ المجـاهد بـالأمان والـطمأنينـة، أَثْنـاء خـوضِـه المعـركـة، فهي أَمْـرٌ معنـويٌّ نفسيٌّ شعـوريٌّ داخلي، لكنَّ أسبـابَ الخـوفِ والخطرِ ما زالت موجودة حولَ هذا المجاهد في الخارج.

إذنْ: الفرقُ بين الأَمْنِ والأمنة:

أنَّ الأمنَ هو شعورُ المؤمن بـالأمن والأمان، مـع زوالِ أسبابِ الخـوف والخطرِ من حوله في الخارج.

أَما الأَمَنَة فهي شعورُ المؤمن بالأمن والأمـان، مع بقـاءِ أسبابِ الخـوف والخطرِ من حولِـه في الخارج، لأنَّ الأَمَنَـة لم تُستعملْ إلَّا في سيـاقِ خوضِ المعـارك عملياً!!

* * *

[٢٧]
«الروع . . . و . . . الروغ»

لم تُستعملْ مادةُ «الرَّوْعِ » و «الرَّوْغِ » في القرآن إلّا في قصةِ «إبـراهيم» ـ عليه السلام ـ.

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ ﴾[1].

والمرادُ بالرَّوْعِ هنا: تأثُّره من مفاجأةِ تبشيره بالولد، مع أَنه كبيرٌ وامرأَتُه عاقر. فقد ارتاعَ وفَزِعَ من صدمةَ المفاجأة. فلما زالَ هـذا الروعُ والفـزعُ صارَ يجادلُ الملائكة في أَمرِ لوط ـ عليه السلام ـ.

أَمّا «الروغُ» ـ أوِ «الرَّوَغان» ـ فقد استُعمل منهـا الفعلُ المـاضي «راغَ» ثلاثَ مرات في الإخبارِ عن «إبراهيم» عليه السلام.

قـالَ الإمامُ الـراغب عن معنى «الرَّوْغ»: «الـرَّوغُ: الميْـلُ على سبيـلِ الاحتيال. وحقيقتُه طَلَبٌ بضَرْبٍ من الرَّوَغان»[2].

لمّا ذهبَ قومُ «إبـراهيم» في عيدِهم، تخلَّفَ هـو، وذهبَ إلى أَصنامهم ليُحطِّمَها: ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة هود: الآية ٧٤.

(٢) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٠٨.

(٣) سورة الصافات: الآيات ٩١ ـ ٩٣.

وليسَ المـرادُ بالـرَّوغان هنـا حقيقتَه القـائمـة على الاحتيـالِ والمكـر، فإبراهيمُ لا يليقُ به ذلك. ولكنَّ المرادَ به هنا: السرعة والخِفَّة، والذهاب إلى الشيء بنوع من الخفيةِ والترتيبِ والإعدادِ السِّرِّي.

ولما جاءتِ الملائكةُ إلى إبراهيم» ـ عليه السـلام ـ في صورة رجـال، ظنهم بَشَراً ضُيُوفاً، فأرادَ أنْ يكرمَهم: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

ورَوغانُ إبراهيم هنـا يعني: مسارعتَـه في إكرام ضيـوفِه، وإسـراعَه في الذهاب، في خفَّةٍ وخفية، ليقدِّم لهم العجلَ السمين الحنيذَ المشويّ.

إنَّ كلمـةَ «راغ» جاءتْ في قصـةِ إبراهيم فقط، مـدْحـاً لـه وثنـاءً عليـه ـ عليه السلام ـ.

* * *

(١) سورة الذاريات: الآيات ٢٥ ــ ٢٧.

[٢٨]
«السِّلْم. والسَّلْم. والسَّلَم»

كلماتٌ ثلاثٌ متقاربةٌ في الأَحرف، وفي الحركاتِ، وفي المعنى، ومع ذلكَ هناكَ فروقٌ بينَ كلٍّ منها.

هذه الكلماتُ هي: السِّلْم، والسَّلْم، والسَّلَم.

إنَّ الكلماتِ الثلاثةَ مشتقةٌ من «السِّلْم»: وهو: «السَّلامةُ من الآفاتِ الظاهرةِ والباطنة»[1] ـ كما يقولُ «الراغبُ الأصفهاني».

لقد وردتْ كلُّ واحدةٍ منها في سياقِ غيرِ سياق غيرها، ودلَّتْ على معنى خاصّ بها في القرآن.

ولْنتابع الآنَ هذه الكلمات في التعبير القرآني:

«السِّلْم: الإسلام»

وردتْ كلمةُ السِّلْم مرةً واحدةً في القرآن. قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾[2].

وليسَ المرادُ بالسِّلم هنا «السَّلام» أو «الحلّ السلمي» للصراع مع اليهودِ والأَعداء!

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٣٩.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٠٨.

إن المرادَ بالسلم هنـا «الإسلام»، فـاللَّهُ يأمـرُنا أنْ نـدخلَ في الإسـلام كافّة.

و «كـافّة» تعني: أنْ نـأخُذَ الإسـلامَ كلَّه، بشمولِـه وعمومِـه، فهـو دينٌ ودولة، وعقيدةٌ وعبادة، وجهادٌ ودعوة، وحكمٌ وقضاء، وسياسةٌ وتشريع...

و«كـافّة» تعني: أن ينعكسَ الإسـلامُ على كلِّ حيـاةِ الإنسـانِ منّـا، وأنْ تظهرَ آثارُه على كل مجالاتِها، الخاصة والعامّة.

و «كافة» تعني: أنْ تلتزمَ الأمةُ المسلمة كلُّها بالإسلام، في كلِّ مرافقِهـا ومؤسساتِها وهيئاتِها.

والإسـلامُ وحدَه هـو السِّلم والسَّلام، لأنـه لن يتحققَ للفردِ ولا لـلأمـةِ ولا للإنسانيةِ السلمُ ولا السلامُ إلاَّ بالالتزامِ الصادقِ الجادِّ بالإسلام.

قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢٥﴾[1].

وقالَ تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾[2].

«السِّلْم: الميل للاستسلام»

وردتْ كلمـةُ «السِّلْم» مرتيْن في القـرآن، في سياقٍ واحـد، وهو سيـاقُ القتالِ بين المسلمين والأعداء.

(١) سورة يونس: الآية ٢٥.

(٢) سورة المائدة: الأيتان ١٥، ١٦.

المرةُ الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾[1].

ومعنى «السَّلْم» هنا: الميل للاستسلام. وهي تخبرُ عن الكفار وهزيمتِهم أمامَ المسلمين، وخضوعِهم واستسلامِهم لهم، في هذه الحالة يكونونَ قد تركوا الحلَّ العسكريَّ القتالي، ومالوا وجنحُوا إلى المسالمة والاستسلام، بسببِ هزيمتِهم. في هذه الحالةِ يجوزُ للمسلمين أنْ يستجيبوا لجنوحِ الكفار واستسلامهم، وعندها يفاوضونَهم على كيفيةِ الاستسلام والمسالمة.

المرةُ الثانية: تنهىٰ المسلمين عن الدعوةِ إلى السَّلْم، لأنهمُ الأعلونَ واللّهُ معهم: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٥﴾[2].

لقد سبقتْ كلمةَ «لا تهنوا» الدعوةُ إلى السَّلْم في الآية، لأنَّ سببَ الدعوةِ إلى السَّلْم هو الوهْنُ والهوانُ والضعفُ والذل.

وقد نهت الآيةُ المسلمين عن الأمرين: الوهْنِ والدعوةِ إلى السَّلْم.

وكأنَّ الآيةَ تتعجَّبُ من هذه الدعوة. فكيفَ يَهِنون ويدعونَ إلى السَّلْم، ويستسلمونَ للأعداء؟ مع أنَّ اللّهَ معهم، وهمُ الأعلونَ بإذن الله، وهمْ على حقّ.

كيفَ يخضعُ أَصحابُ الحقِّ لأصحابِ الباطل؟ وكيفَ يَجْبُنون أمامهم؟ وكيفَ يستسلمونَ لهم؟

لقد نهت الآيةُ عن هذا السَّلْم والاستسلام، وحرَّمَتْه عليهم.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦١.

(٢) سورة محمد: الآية ٣٥.

«السَّلَم: الاستسلام الذليل»

وردتْ كلمةُ «السَّلَم» خمسَ مرات في القرآن.

مرَّتان في سياقِ الحربِ بين المسلمين والكفارو وردَتا في سورة النساء:

الأولى: تقررُ أنَّ على الكفار إلقاءَ السَّلَم للمسلمين، أي: استسلامهم العمليّ الذليل، فإنْ فعلوا ذلك فعلى المسلمين الكفُّ عنهم. قالَ تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾[1].

الثانية: تقرِّرُ أنَّ الكفارَ إذا لم يُلْقُوا إلى المسلمين السَّلَم، ولم يَستسلموا أمامَهم، فعلى المسلمين قتالُهم أينما كانوا. قالَ تعالى: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾﴾[2].

ومرَّتان وردَتا في سورةِ النَّحل، في استسلامِ الكُفّارِ الذليلِ بين يدي الله.

(١) سورة النساء: الآية ٩٠.

(٢) سورة النساء: الآية ٩١.

الأولى: تتحدثُ عن استسلامِ الكافرينَ الظالمين عند الاحتضارِ، وبراءتِهم من أعمالِم السيئة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[1].

والثانيةُ: تتحدثُ عن استسلامِ الكافرينَ الذليلِ بعدَ البعث يومَ القيامة، وإلقائِهمُ السَّلَمَ هناكَ، وإلقائِهمُ المسؤوليةَ على الذينَ أضلّوهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾[2].

ونلاحظُ أنَّ التعبيرَ عن «السَّلَمِ» في المواضعِ الأربعة، جاءَ بصيغةِ «أَلْقَوُا السَّلَمَ». فالسَّلَمُ هو الاستسلامُ. وإلقاءُ السَّلَمِ هو المبالغةُ في الاستسلام.

والمرةُ الخامسةُ لذكْرِ السَّلَمِ في القرآن تتحدثُ عن الفرقِ بينَ مَنْ يخضعُ لغيرِ الله، ويتلقى أوامرَ وتعليماتٍ مختلفةً متعارضة، صادرةً عن مسؤولين مختلفين متنازعين، وبينَ مَنْ يخضعُ لله وحدَه ويستسلِم له، ويتلقى أوامرَه. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾[3].

فالمسلمُ رجلٌ «سَلَمٌ» لله، أي مستسلمٌ لله استسلاماً كاملاً شاملاً.

---

(١) سورة النحل: الآية ٢٨.

(٢) سورة النحل: الآيتان ٨٦، ٨٧.

(٣) سورة الزمر: الآية ٢٩.

«الخلاصة»

إنَّ التعبيرَ القرآنيَّ فرَّقَ بين الكلمات الثلاثة: السِّلْم، والسَّلْم، والسَّلَم.

«السِّلْم»: هو الإسلامُ، وكلُّ الناسِ مأمورون بالدخولِ فيه كافة، ليكونوا مسلمين لله.

«السَّلْم»: هو الميلُ إلى الاستسلامِ والمسالمة. وتركُ القتالِ والحرب، وهذه دعوةٌ موجَّهةٌ إلى الكفار، ليجنحُوا إليه، وهو محرَّمٌ على المسلمين.

«السَّلَم»: هو نَتيجةُ «السَّلْم» حيثُ يُلقي الكفارُ للمسلمين السَّلَمَ في الدنيا، فيستسلمون لهم الاستسلامَ الذليلَ المهين، ويُلْقونَ هذا السَّلَمَ إلى الله عند الاحتضار، وفي يوم القيامة.

* * *

[٢٩]
«الموت: ذلك الفاعل المؤخَّر دائماً في القرآن»

يلاحظُ القارئُ للقرآن، والناظرُ في آياته، أنَّ الآياتِ التي تتحدثُ عن «الموتِ» تجعلُ الموتَ فاعلاً مؤخَّراً دائماً، والميتَ مفعولاً به مقدَّماً دائماً.

نوردُ طائفةً من هذه الآيات:

١ ـ قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ...﴾[١].

٢ ـ قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ...﴾[٢].

٣ ـ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ...﴾[٣].

٤ ـ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا...﴾[٤].

٥ ـ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ... ﴿٩٩﴾﴾[٥].

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ...﴾[٦].

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٣.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٨٠.
(٣) سورة النساء: الآية ١٨.
(٤) سورة الأنعام: الآية ٦١.
(٥) سورة المؤمنون: الآية ٩٩.
(٦) سورة المنافقون: الآية ١٠.

٧ ـ قال تعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾(١).

٨ ـ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ﴾(٢).

ونلاحظُ في هذه الآياتِ بعضَ اللطائف، منها:

١ ـ الموتُ في الآيات كلِّها جاءَ فاعلاً لما سبقَه من أفعال.

٢ ـ جاءَ الفاعلُ «الموت» في الآيات كلِّها مؤخَّراً عن المفعولِ به.

٣ ـ المفعولُ به في الآياتِ كلِّها هو الإنسانُ الذي مات.

ولدى تدبُّرِ هذه الملاحظة، ومحاولةِ استخراجِ الحِكَم التي تبدو لنا منها، فإنَّنا نسجِّلُ هذه الحِكَم:

«لماذا الموت هو الفاعل؟»

١ ـ الموتُ هو الذي يأتي للإنسان الذي انتهى أجلُه، ولذلكَ ناسبَ أن يكونَ هو الفاعل، في موضوعِ الحضورِ والإتيان والمجيء. وإلاَّ فمَن هو الذي يموتُ بإرادته ورغبته واختياره، ليكونَ هو الفاعلُ في عملية الموت؟.

٢ ـ تأخيرُ الفاعلِ «الموت»، وتقديمُ المفعولِ به «الميِّت» عليه دائماً، لكراهيةِ الإنسانِ للموت، وعدمِ محبته قدومه.

(١) سورة النساء: الآية ٧٨.

(٢) سورة الجمعة: الآية ٨.

«حكمة نفسية من تأخير الفاعل»

٣ ــ وهــذا يقودُنـا إلى ملاحـظةِ «حكمـةٍ نفسيـةٍ» من تـأخيـرِ الفـاعـل «الموت»، إنَّ الإنسانَ يرغبُ في أَنْ يتأخَّرَ الموتُ، ويتمنّى أَنْ لا يـأتيه أبـداً، ليستمتعَ بحياتِه. وإذا كان لا بدَّ من قدومه فليتأَخَّرْ!

ولا نـدركُ هذه الحكمـةَ «النفسية» من تـأخيرِ الفـاعل، إلَّا بـالاستعـانـةِ بمقرَّراتِ «علمِ النفس التحليلي» الصحيحةِ المتَّزنة. وهـذا من بابِ «تـوسيعِ التفسيـر»، والاستعانـةِ بالعلوم والمعـارفِ الحديثـة، لملاحـظةِ أَبعـادٍ جـديـد للآيات[1].

إنَّ المـوتَ مؤخَّرٌ عن شعـورِ الإنسان وتفكيـره، وقدْ راعى السيـاقُ هذه الرغبةَ النفسيةَ البشرية، فأَخَّره في الجملةِ القرآنية.

وإنَّ الموتَ هو الذي يأتي لصاحبه، وليسَ صاحبُه هو الذي يسيرُ إليه، وقد لاحظَ السياقُ هذا المعنى، فأسندَ الحضورَ والإتيـانَ إليه، وجـاءَ «فاعـلاً» في الجملةِ القرآنية. والله أعلم!

* * *

(١) انظر المفتاح العشرين من كتابنا «مفاتيح للتعامل مع القرآن».

[٣٠]

«الهدية في القرآن هي الرشوة»

«الهديَّة» لم تَرِدْ في القرآنِ إلَّا مرَّتيْن، في سياقٍ واحد لقصةٍ واحدة، في سورةٍ واحدة.

وردتْ مرتيْن في سورةِ النمل، في سياقِ قصةِ سليمان ــ عليه السلام ــ مع ملكة «سبأ».

فقد اكتشفَ الرَّحَّالةُ الداعيةُ «الهدهد» أرضَ «سبأ»، وتعجَّبَ من عبادةِ القوم فيها للشمسِ من دون الله. وكلَّفَهُ «سليمان» ــ عليه السلام ــ أن يوصلَ كتاباً إلى مَلِكتهم، يدعوها فيه إلى الإسلام. فلما رأت الكتابَ خافتْ وفزعت، وعرضَت الأمرَ على «الملأ» من قومِها، فتركوا الأمرَ لَها، وفوَّضوها بالتصَّرف.

«ملكة سبأ تحاول رشوة سليمان عليه السلام»

استخدمت «الملكةُ» سلاحاً عجيباً في الردِّ على كتابِ سليمان ــ عليه السلام ــ ودعوته.

قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[١].

(١) سورة النمل: الآيات ٣٥ ــ ٣٧.

عندما نمعنُ النظرَ في هذا السياق، فسوفَ نعرفُ الإيحاءاتِ والظلالَ التي يُلقيها لفظُ «الهديَّة»، والدلالةَ التي نخرجُ بها منه.

إنَّ ملكةَ «سبأ» قد استخدمتْ سلاحَ «الإغراءِ بالمال» ـ أَو الرشوة ـ لتقفَ به أَمامَ رسالةِ «سليمان» ـ عليه السلام ـ.

وقد أَطلقتْ على هذه الرشوةِ كلمةَ «هدية». . . لأَنَّ اسمَ الرشوة صريحٌ مكشوف، قد ينفرُ منه الراشون والمرتشون، فيلجأُونَ إلى اسم مُمَوَّهٍ، وهو الهدية.

«سليمان عليه السلام يستعلي على الرشوة»

ولكنَّ «سليمانَ» ـ عليه السلام ـ ليسَ من ذلكَ النوعِ المرتشي، لأَنَّ حاملَ الرسالة وصاحبَ الدعوة، لا يبيعُ دعوتَه بثمن، ولا يسكتُ عن رسالتِه مهما كان الثمن!

كذلكَ كان «سليمان» ـ النبيُّ الحكيم عليه السلام ـ من الفطنةِ والذكاء، بحيثُ اكتشفَ الغرضَ الحقيقيَّ لملكةِ «سبأ». ولذلكَ رفضَ هديَّتَها ـ أَوْ رشوتَها ـ باستعلاءٍ واعتزاز، وهدَّدَها بالحربِ إنِ استمرَّت على هذا الأسلوبِ التجاريِّ الرخيص: ﴿فَلَمَّا جاءَ سليمانَ، قالَ: أَتُمِدّونَنِ بِمالٍ فما آتانِيَ اللَّهُ خيرٌ مِمّا آتاكُم، بلْ أنتمْ بهديَّتِكُمْ تَفْرَحون. ارْجِعْ إليهم، فلنأْتِيَنَّهُمْ بجنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بها، وَلَنُخرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً، وَهُمْ صاغِرونَ﴾.

ونلخصُ هنا بعضَ الإيحاءاتِ والدلالات:

١ ـ وردتْ كلمةُ «الهدية» في القرآنِ في سياقِ الذَّمِّ. وليس معنى هذا أَنَّ الهديةَ دائماً مذمومةٌ منهيٌّ عنها، ولكنها مذمومةٌ إذا كانت رشوة، ومحمودةً مسنونة إنْ كانت «هدية» لوجْه الله، لوُرودِ أَحاديث صحيحةٍ تأمرُ بها وتحثُّ عليها.

٢ ــ وردت «الهديةُ» في القرآن بمعنى «الرشوة».

٣ ــ كانت مَلِكةُ «سبأ» أَوَّلَ مَنْ حَرَّفَ وزَوَّرَ وتـلاعَبَ بالمصـطلحات، حيثُ أَطلقَتْ على الرشوةِ كلمةَ «هديـة»، ثم سارَ المحـرِّفون المـزَوِّرون على طريقتِها، فصاروا يسمُّون الرشاوى هدايا.

ولقـد «تَفَنَّنَ» هؤلاء في هذا الـزمان في التحـريفِ والتلاعب. فمـا أكثرَ ما تُقَدَّمُ الرشاوى للمسؤولين والموظَّفين باسم «الهدايا».

٤ ــ إننا نعجبُ بفطنةِ وذكاء «سليمـان» ــ عليه السـلام ــ واستعلائِـه على الـرشوة والإغـراءِ بالمـال، وندعـو الموظَّفين والمسؤولين ليقتـدوا بـه في موقفه.

* * *

[٣١]
«بارَكْنا: للأرض المقدسة»

كلمةُ «بارَكْنا» فعلٌ ماضٍ مسنَدٌ إلى الضمير «نا» الذي يعودُ على الله ـ سبحانه ـ.

وقد وردتْ هذه الكلمةُ ستَّ مرات في القرآن، ووَصَفَ اللّهُ بها «الأرضَ المقدسة» حيثُ أَخْبَرَنا سبحانَه أنه بارَكَها وبارَكَ فيها، فجاءَتْ أَرضاً مقدَّسة مباركة.

١ ـ قالَ تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ﴾(١).

لقدْ أغرقَ اللّهُ فرعونَ وجنودَه، وأَنجى بني إسرائيل، وأَورثهم مشارقَ الأرض المباركة ومغاربَها، والأَرضُ المباركةُ «التي بارَكْنا فيها» هي «فلسطين» وما جاوَرَها من بلادِ الشام.

٢ ـ قالَ تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ﴾(٢).

تقرِّرُ الآيةُ أَنَّ ما حولَ المسجدِ الأَقصى مبارَك «الذي بارَكْنا حَوْلَهُ» وما حولَه ليس مقصوراً على فلسطين، بل بلادُ الشام بأَقاليمها الأربعة: فلسطين والأردن وسوريا ولبنان.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٣٧. (٢) سورة الإسراء: الآية ١.

٣ ـ قالَ تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾[1].

والكلامُ عن «إبراهيم» ـ عليه السلام ـ حيثُ تقرِّرُ الآيةُ أَنَّ اللَّهَ قد أنجى إبراهيم ولوطاً ـ عليهما السلام ـ من الكافرينَ الظالمين في بلاد العراق، إلى الأرض «التي باركْنا فيها للعالمين». بلاد الشام!

٤ ـ قالَ تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾[2].

كانت عاصمةَ سليمان ـ عليه السلام ـ هي بيتُ المقدس، ومنها حكمَ بقاعاً كثيرةً في بلدانٍ مجاورة، وكانتْ خيراتُ تلكَ البلدان تَرِدُ إلى الأرضِ التي باركَ الله فيها للعالَمين، بلادِ الشام.

٥ ـ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾[3].

الكلامُ عن دولةِ «سبأ» التي قامتْ في بلادِ اليمن. وتقرِّرُ الآيةُ أنَّ اللَّهَ قد جعلَ بينَ دولةِ سبأ في اليمن، وبينَ الأرض التي باركَ الله فيها في بلادِ الشام، قرًى ظاهرة، وهي القائمةُ على الطريقِ بينَ اليمن والشام.

٦ ـ قال تعالى: ﴿وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧١.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٨١.

(٣) سورة سبأ: الآية ١٨.

(٤) سورة الصافات: الأية ١١٣.

والكلامُ في الآيةِ عن إبراهيمَ ـ عليه السلام ـ وأَنَّ اللَّهَ قد باركَ عليه وعلى ابنه إسحاق، وعلى المحسنين من نسلِهما وذريتهما. والبركةُ عليهما وعلى البقعة التي كانا يقيمان فيها، وهي الأَرضُ المقدسة.

«من إيحاءات الآيات»

وعندَ النظرِ في الآياتِ الستة، نخرجُ باللطائفِ واللفتاتِ التالية:

١ ـ عبَّرَ عن البركةِ فيها كلِّها بالفعلِ الماضي، وفي هذا إشارةٌ إلى أَن البركةَ في الأَرض المقدسة أَصيلةٌ ثابتة راسخة، ممتدةٌ في أعماقِ الزمن الماضي والتاريخِ السَّحيق.

٢ ـ إسنادُ الفعل الماضي إلى الضمير «بارَكْنا»، يدلُّ على أَنَّ اللَّهَ هو الذي باركَ في الأَرض المقدَّسة، والبركةُ أَساساً لا تكون إلَّا من الله، كما أَنَّ هذه البركة التي أَسبغها الله عليها، لا يقدر أَحدٌ من البشر على نزعها منها.

٣ ـ المنطقةُ التي باركها الله وبارك فيها، هي المسجدُ الأقصى، والأَرضُ الواقعةُ حوله، وهي شاملةٌ لبلاد الشام كلِّها بأَقطارها الأربعة: فلسطين والأردن وسوريا ولبنان.

إذَنْ «بارَكْنا» لم يُطْلِقْها القرآنُ إلَّا على الأَرضِ المقدَّسة، بلادِ الشام.

«من مظاهر البركة في الأرض المقدسة»

لكنْ ما هو المرادُ بالبركة التي حلَّتْ فيها، وأَسبغَها اللَّهُ عليها؟

لقد أَوردت الآياتُ هذه البركةَ مطلقة، لم تحدِّدْها بلونٍ أو مظهر أَو حالة، ولهذا يجبُ أَن نبقيَها نحنُ على عمومِها وإطلاقها، ولا يجوزُ أَن نَقْصِرَها على واحدةٍ منها، لأَنَّ «حذفَ المعمولِ يفيدُ العموم» ـ وفقَ القاعدةِ الأَساسيةِ في فهم القرآن ـ.

ومن مظاهرِ البركةِ الربانية في الأرضِ المقدَّسَة ـ من باب التمثيل ـ:

١ ـ البركةُ في موقعِ الأرض الاستراتيجيِّ التاريخيِّ الحضاري، باعتبارِها في قلبِ العالم.

٢ ـ البركةُ في مناخِ الأرض وطقسِها وجوِّها، باعتبارِها تربةً صالحةً للزراعة، تحقِّقُ خصْباً اقتصادياً، وإنتاجاً زراعياً. وقد وُصفتْ في التوراة بأنها «البلادُ التي تدرُّ لَبَناً وعسلاً».

٣ ـ البركةُ التاريخية: باعتبارها البلادَ التي لها تأثيرٌ مباشر على حركةِ التاريخ البشري، في القديمِ والحديث، وسيبقى لها هذا الأثرُ الفعّال حتى قيام الساعة.

كم من الأُمم أقامت فيها! وكم مِن القادةِ حكموها! وكم من الجيوشِ مرَّتْ فيها! وكم من المعاركِ الفاصلةِ وقعتْ فيها! وكم من الدماءِ أُريقتْ عليها! وكم من الشهداءِ سقطوا فوقها! وكم ينتظرُها من هذا في المستقبل!

٤ ـ البركةُ الإيمانية: باعتبارِها أَرْضَ النبوّات، ومهدَ الرسالات، أَقام عليها ودُفن فيها أنبياء كرام، وأُنزلت فيها الكتبُ الربّانية عليهم، وانطلقتْ منها الرسالاتُ السابقة.

٥ ـ البركةُ الإسلامية: باعتبارها أَرضَ الإسلام والمسلمين منذُ الإسراء والمعراج والفتح الإسلامي الأول. وباعتبارِ دورِها في أَحداثِ التاريخ الإسلامي، وبخاصةٍ زمنَ صلاح الدين وقُطُز، والقضاءِ على العلوِّ والإفسادِ اليهودي المعاصر... وكونِها أَرضَ الجهادِ والرباط والاستشهاد حتى قيامِ الساعة.

* * *

[٣٢]
«التأليف في القرآن»

مادةُ «التأليف»، موجودةٌ في القرآن بعدةِ اشتقاقات: أَلَّفَ. يُؤلِّفُ. إيلاف. المؤلَّفة قلوبهم. أَلْف. أَلْفان. ثلاثةُ آلاف. خمسةُ آلاف. ألوف.

قالَ «الراغبُ الأصفهاني» عن التأليف: «الإلفُ اجتماعٌ مع التئام، يُقال: أَلَّفتُ بينَهم. ومنه الأُلْفة... والمؤلَّفُ: ما جُمِعَ من أجزاء مختلفة، ورُتِّبَ ترتيباً، قُدِّم فيه ما حقُّه أن يُقدَّم، وأُخِّرَ فيه ما حقُّه أَنْ يُؤَخَّر.

والأَلْف: سُمِّيَ بذلك لأنَّ الأعداد فيه مؤتلِفَة، فإن الأعدادَ أربعة: آحاد، وعشرات، ومئات، وألوف. فإذا بلغت الأَلْف فقد ائتلفَتْ، وما بعدَه يكونُ مكرَّراً»[١].

«الفعل الماضي: أَلَّفَ»

وسنقفُ لحظاتٍ مع الفعل الماضي «أَلَّفَ» في التعبير القرآني، لاستخراج لطائف من هذا السياق.

وردَ الفعلُ الماضي «أَلَّفَ» أربعَ مرّات، في آيتيْن.

الآيةُ الأولى: في سورةِ آل عمران، في سياقِ بيانِ نعمةِ الله على المسلمين، وتوجيهِهم نحوَ الاعتصام بحبل الله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

(١) المفردات: ٢١ باختصار.

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1].

إنَّ التأليفَ لا يكونُ إلَّا بينَ الأَشياءِ المتجانسة المتقاربة، ولذلـكَ تكونُ القلوبُ المؤمنةُ مهيَّأَةً للتآلف، مستعدَّةً له.

ثم إنَّ القلوبَ هي الأَسـاسُ في التآلف ـ لأَنَّ القلبَ هـو مركـزُ الكيان الإنساني ـ ولذلك نصَّت الآيةُ على ذلك: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ...﴾.

أمـا نتيجةُ التـآلفِ بين القلوبِ فهي الأُخوَّةُ في الله، وهي نعمـةٌ غامـرةٌ من الله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾.

الآيةُ الثانيةُ: وردَ الفعلُ فيها ثلاثَ مرّات، في سياقِ بيانِ نعمةِ اللّهِ على المؤمنين في التأْليفِ بين قلوبهم. قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[2].

«من دلالات الفعل: أَلَّف»

وعندما ننظرُ في الآية، سنستخرج منها بعضَ اللفتات:

١ ـ وردَ الفعـلُ «أَلَّفَ» مـرتيْن مثْبَتـاً، مسْنَـداً إلى الله: ﴿وَأَلَّفَ بينَ قلوبهم﴾ و ﴿لكنَّ الله أَلَّف بينهم﴾، ووردَ في المـرةِ الثـالثـة منْفِيّاً مسْنَـداً لِرسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ ﴿ما أَلَّفْتَ بين قلوبهم﴾.

وهـذا يشيرُ إلى حقيقـة، وهي: أنَّ اللّهَ وحدَه هـو القـادرُ على التـأْليفِ والجمعِ بينَ قلوبِ العِبادِ على طاعةِ الله.

(١) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٢) سورة الأنفال: الآيتان ٦٢ ـ ٦٣.

٢ ـ ترشدُنا الآيةُ إلى وسيلةِ التأليفِ بينَ القلوبِ المتجانسةِ المتشابهة، وأنَّها محصورةٌ في الأُخُوَّةِ في الله، ومحبةِ الصالحين في الله، والتقاءِ الجميع على طاعةِ الله. وتنفي الوسائلَ الماديةَ الدنيوية، وتبيِّنُ أنَّ أصحابَها عاجزونَ عن التَّأليف: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جَميعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلوبِهِمْ﴾.

٣ ـ أكَّدت الآيةُ على أنَّ مادَّة التأليفِ هي القلوب، وذلكَ عندما تلتقي على محبةِ الناس في الله، ومؤاخاتهم في الله، وطاعتِهم لله. فليس التأليفُ بينَ الناس في التقائِهم على مصالحَ أو أقوال أو منافع، أو صِلاتٍ دنيوية، أو روابطَ قومية، إذْ سرعانَ ما تزولُ تلك الروابط.

٤ ـ معلومٌ أنَّ التَأليفَ يكون بين الأشياء المتساويةِ القابلةِ للتأليف، وتكونُ نتيجةُ التأليفِ هي تحوُّلَ القلوبِ المتآلفة إلى قلب واحد، واتِّحادَها في قلبٍ واحد، وكأنَّها أشياء متساوية في المساحاتِ والمسافات والقياسات والأحجام، فينتجُ من التأليفِ بينها «كُلٌّ» واحدٌ جميلٌ قويٌّ متين. ولهذا حُذفتْ كلمةُ «قلوبهم» في المرة الثالثة. فقال: ﴿وَلٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بينَهم﴾.
ـ والله أعلم ـ.

* * *

[٣٣]
«الشكوى فقط لله»

الشَّكوى مشتقَّةٌ من «الشَّكْوِ»، وقدْ قالَ الإمامُ الراغبُ الأصفهاني عن معناها: «الشَّكْوُ والشِّكايةُ والشَّكاةُ والشَّكوى: إظهارُ البثّ.

وأَصلُ الشَّكْوِ: فتحُ الشَّكوة، وإظهارُ ما فيه، وهي سقاءٌ صغير، يُجعَلُ فيه الماء، وكأنهُ في الأصلِ استعارة، كقولهم: بَثَثْتُ له ما في وعائي، ونفضْتُ ما في جِرابي: إذا أَظهرتَ ما في قلبك»[1].

الشكوى إذن هي أَن يقدِّمَ شخصٌ لآخرَ مشكلتَه، وأَن يبثَّه همومَه، وأَن يُظهرَ له ما في قلبه من أحزان، ويضعَ بين يديه ما يعانيه من آلام، بهدفِ الحصولِ على مساعدته.

نأتي الآنَ إلى التعبيرِ القرآني، لنرى السياق الذي وردتْ فيه «الشكوى»، ودلالةَ ذلك.

«الشكوى: مرتان في القرآن»

لم يردْ من اشتقاقات «الشَّكوى» في القرآن، إلاَّ صورةُ الفعل المضارع. وقد وردتْ بهذه الصورةِ مرَّتَيْن في القرآن:

١ ـ في قصةِ يعقوب ويوسف، وحُزْنِ يعقوب على فِراقِ ابنه يوسف ـ عليهما السلام ـ تأَثَّر لمّا أخبرَه أولادُه باحتجازِ ابنه الثاني في مصر، فتذكَّرَ

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٢٦٦.

يوسف، وشعرَ بالحزن لفقد ابنَيْه الاثنيْن، وأعلنَ هذا قائلاً: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾[1].

ونلاحظُ أنَّ موضوعَ الشكوى هو بثُّ يعقوب وحزنُه ـ عليه السلام ـ.

كما نلاحظُ أنـه قدَّمَ الشكـوى إلى الله فقط، فلم يَشْكُ بثَّـه وحزنَـه إلى أحد من البشر.

٢ ـ في قِصةِ «خولـة بنت ثعلبة»، حيثُ ظـاهَرَ منهـا زوجُها «أوس بن الصـامت» فأتَتْ الـرسولَ ـ صلَّى اللَّه عليـه وسلَّم ـ وعـرضت الأمـرَ عليـه، وطلبتْ منه بيانَ الحكم، وهو يقولُ لهـا في رواية: «لم يَنْـزِلْ عَلَيَّ فيكِ شيء». وفي روايـة أخرى: «ما أراكِ إلاَّ قد بِنْتِ منه» أيْ: وقـعَ الـطلاق، وانفصلْتِ عنه. وكانتْ هي تحاورُه وتراجعُه وتعلنُ «الشكوى» إلى الله.

قال تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾[2].

وعندما نمعنُ النظرَ في الآية، فسنلاحظُ فيها ما يلي:

١ ـ أَنَّ الشكوى موجهـةٌ إلى الله فقط، ولذلـك كانتْ «خـولَةُ» تشتكي إلى الله.

٢ ـ نسبت الآيةُ لخولة فعليْن: الأول الجدال. وقـد كان مـع الرسـول عليه السلام «تُجادِلُكَ». والثاني «الشُّكوى» ووجَّهَتْها إلى الله.

٣ ـ لا بدَّ من «سَماع» الشكـوى من الشّاكي، وحـلِّ مشكلته، وطـالَما أنَّ خولة قدَّمتْ شكواها إلى الله، فقد سمعَ اللَّهُ شكواها، وقدَّم لها الحل.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٦.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١.

ولـذلـك أشــارت الآيـةُ ثــلاثَ مـرّات إلى ذلـك. الفعـلُ المــاضي «سمع الله». والفعلُ المضارع «الله يسمعُ»، وصيغةُ المبالغة «إنَّ اللَّهَ سميع».

٤ ــ ولأنَّ الآيةَ تتحدثُ عن الله، والسيـاقَ في تعظيم الله، فقـد وردَتْ كلمةُ «الله» ــ لفظُ الجلالة ــ أربعَ مرات في الآية!

ونخرجُ من هذا بهذهِ الحقيقةِ اللطيفة:

الشَّكوى في القرآن، وردَتْ في صورةِ الفعل المضـارع، وهي موجُهـةٌ إلى الله فقط.

ولعــلُ هـذا الاستعمــالَ القـرآني للشكــوى يشيــرُ للمسلمين إلى أَن لا يتوجُّهوا بشكواهم إلَّا إلى الله، لأَن الشكوى أساساً لا تكون إلَّا لله.

وهذا لا يمنعُ من إخبار الآخرين بمشكلةِ الإنسان، وإسماعِهم شكـواه. لكنَّ توجُّهَه بمشكلتِه في الحقيقة هو لله، وتوكُّلَه على الله، واعتقادَه بأنَّ القادرَ على كـل شيء هو الله. وأنـه يسخِّـرُ مـا يشـاء من الأسبـاب، فـالبشـرُ الـذين يخاطبهم ويشكو لهم أَسباب فقط، والمسبِّبُ والمقدِّرُ هو الله.

* * *

[٣٤]
«صغت قلوبكما»: كم قلباً للإنسان؟

الصَّغْوُ: الميلُ للشيء. تقولُ: صغا يصغو صَغْواً: إذا مال.

والصغْوُ في القرآن وردَ مرتَيْن، وهو مسنَدٌ إلى القلوب والأفئدة.

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[1].

الكلامُ في الآية عن زخرفِ وغرورِ وباطلِ الكفار من شياطين الإنس، حيثُ تبيَّن أنه لا ينخدعُ به إلاَّ الكفار، حيثُ تصغو قلوبُهم إليه، ثم يرضَوْنَهم به، ثم تأتي الخطوةُ الثالثة وهي الكسبُ والعملُ والاقتراف: أيْ فعلُ ذلك الباطل.

٢ ـ قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾[2].

الكلامُ في الآية عن مشكلةٍ، في بيوتِ الرَّسول ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ بينَه وبين أزواجه، والخطابُ فيها لعائشة وحفصة ـ رضي الله عنهما ـ.

وقولُه: ﴿إنْ تَتوبا إلى الله﴾ جملةٌ شرطية: فيها «إنْ» الشرطية، و «تتوبا إلى الله»: فعلُ الشرط.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١١٣.

(٢) سورة التحريم: الآية ٤.

وجوابُ الشرط محذوف، دلَّ عليه السياق. تقديرُه: إنْ تتوبا إلى الله، فقد وجبَ عليكُما ذلك.

وجملةُ «فَقَدْ صَغَتْ قلوبُكُما» ليست جوابَ الشرط، بل هي جملةٌ استئنافية تعليلية، لبيانِ سببِ مطالبتهما بالتوبة، أيْ: وجبت التوبةُ لأنه صغتْ قلوبكما.

ومعناها: مالَتْ قلوبُكما قليلاً إلى جانب المعصية.

«الحكمة من جمع القلوب»

والسؤالُ هنا: الخطابُ في الآية للمرأتيْن ـ عائشة وحفصة ـ وكان من المناسبِ أنْ يُثَنّى القلبُ ولا يُجْمَع، أيْ: تقولُ الآية: فقدْ صغى قلباكما.

فلماذا جاءت القلوبُ جَمعاً: ﴿فقد صغَتْ قلوبُكما﴾؟ فكمْ قلباً للإنسان.

كلُّ إنسانٍ له قلبٌ واحدٌ فقط، قال تعالى: ﴿ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾[1].

وسياقُ الآية هو الذي يشيرُ إلى الحكمةِ من العُدول عن تثنيةِ القلبِ إلى جمعه، ومعنى «الصَّغو» يشيرُ إلى الحكمة كذلك.

إنَّ الآيةَ في سياقِ تهديدِ الزوجتيْن، وتأنيبِهما لوقوعِهما في خطأ ومؤاخذة.

إنَّ المسلمَ عندما يعملُ الذنبَ والخطأ والمعصية، يتأثَّرُ قلبُه بذلك، فيميلُ عن وضعِهِ الإيماني، وينزلُ عن درجتِه الإيمانية، ويقلُّ مستواهُ الإيماني. وهذا هو المرادُ بالصغو.

وبما أنَّ الصغوَ يتضمَّنُ معنى الانحراف إلى أسفل، والميلِ نحوَ الأسفل ـ لأنَّ الإيمانَ ارتفاعٌ إلى أعلى، والمعصيةَ انحدارٌ وانحرافٌ إلى الأسفل ـ لذلكَ يكونُ صغْوُ القلب وميلُه وانحدارُه نحوَ الأسفل متفاوِتاً ومتسارعاً.

بمعنى أنه كلَّما زادَ ميلانُ القلب وانحدارُه تغيَّرَ مستواه، وزادَ تأثيرُ الميلِ والصغو فيه.

وكأنَّ القلبَ في عمليةِ صغوِه وانحداره، ليسَ قلباً واحداً، بل عدةُ قلوب، ولو لاحظَ أحدُ الفروقَ بين القلبِ في مراحلِ ودرجاتِ صغوِه وانحدارِه لوقَفَ على ذلك، ولاحظَ تأثيرَ الانحدار المتسارعِ والمعصيةِ فيه. ولو التُقطَتْ للقلبِ عدةُ صور، تمثِّلُ كلُّ صورةٍ درجةً من درجاتِ انحداره، لوُجِدَتْ فروقٌ.

لهذا المعنى وردَتْ القلوبُ في الآية مجموعة: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾، وكأنَّ كلَّ واحدة منهما ملكتْ أكثرَ من قلب، من خلالِ أثرِ الصغو والميلِ للقلبِ في مراحلِ صَغْوِه. ـ والله أعلم ـ.

* * *

[٣٥]
«نون التوكيد المخففة في القرآن»

نونُ التوكيدِ: حرفٌ يدخلُ على الفعلِ المضارعِ والأمر، ولا يدخلُ على الاسمِ ولا الحرفِ ولا الفعلِ الماضي.

وهذهِ النونُ تفيدُ توكيدَ المعنى الذي يقرِّره الفعلُ وإقرارَه.

وهو نوعان:

الأولُ: نونُ توكيدٍ مشدَّدة.

الثاني: نونُ توكيدٍ مخفَّفة ساكنة.

وتدخلُ نونا التوكيد ـ المخفَّفة والمشدَّدة ـ على الفعلِ المضارع، ويُبْنى على الفتحِ إذا اتَّصلتا به اتِّصالاً مباشراً.

ونونُ التوكيدِ المشدَّدة وردتْ كثيراً في القرآن.

«وردت مرتين»

أمَّا نونُ التوكيد المخفَّفة فلم تردْ إلَّا مرتيْن في القرآن:

الأولى: في سورةِ يوسف، وفي قصةِ مراودة امرأةِ العزيز ليوسف ـ عليه السلام ـ وجمعِها النساء، وإدخالِ يوسف عليهن، وإعجابِهن به، واعترافِها بمراودتِها له، وتهديدِها المخفَّفِ له.

قال تعالى: ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ

فَٱسْتَعْصَمَۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

نونُ التوكيدِ المخففة هي الداخلةُ على الفعلِ المضارع «يكونُ» الذي بنَتْه على الفتح. وقد سبقَتْها نونُ التوكيد المشدَّدة في قوله «لَيُسْجَنَنَّ».

الثانية: في سورةِ «العلق» وفي سياقِ تهديدِ أعداءِ الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ قال تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾[2].

نونُ التوكيد المخفَّفة هي الداخلةُ على الفعلِ المضارع «نَسْفَعْ»: أيْ نَجُرُّه ونسحبُه من ناحيته.

* * *

(١) سورة يوسف: الآية ٣٢.

(٢) سورة العلق: الآية ١٥.

[٣٦]
«عسى التي لم تقع في القرآن»

عسى: فعلٌ ماضٍ جامد، يفيدُ الترجِّي. وهي من أَفعالِ الرجاء، تعملُ عملَ «كانَ» فترفعُ الاسم، وتنصبُ الخبر، وخبرُها في القرآن جملةٌ فعلية، مقترنةٌ بحرفِ «أَنْ» المصدرية الناصبة.

وهي تدلُّ على الترجي. قال الإمامُ الراغبُ الأصفهاني في معناها: «عسى: طَمَعٌ وتَرَجٍّ. وكثيرٌ من المفسِّرين فسَّروا «لعلَّ» و«عسى» في القرآنِ باللازم. وقالُوا: إنَّ الطمعَ والرجاءَ لا يصحُّ من الله. وفي هذا قُصورُ نظر.

وذلكَ أَنَّ اللّهَ تعالى إذا ذَكَر ذلك، يذكُره ليكونَ الإنسانُ منه راجياً، لا لِأَنْ يكونَ هو سبحانَه يرجو»[1].

وقد وردَتْ «عسى» مجرَّدَةً ثمانيَ وعشرين مرَّة. ووردَتْ مسندةً إلى الضمير «تُمْ» مرتين: «عَسَيْتُم».

وتفيدُ تحقُّقَ الوقوع، والناظرُ في السياقِ الذي وردَتْ فيه، يرى أنه قد تحقَّقَ وحصل.

إلّا في موضعٍ واحد في القرآن، فإنها وردَتْ فيه للتهديد، ولَمْ يتحقَّق الموضوعُ الذي دخلتْ عليه.

وذلك في قولِه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[2].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٣٣٤.

(٢) سورة التحريم: الآية ٥.

السياقُ هو تهديدُ أَزواجِ الرسول ــ عليه السلام ــ بـأَنهنَّ إذا لَمْ يلتزمْنَ مع الرسول، ولم يُطعْنَـه، فإنـه سيطلّقهنَّ، وإنْ طلّقهن فـإنَّ اللّهَ سيبدلُـه نساءً خيراً منهن.

لكن: هـلْ طلّقَ الرسـولُ عليه السـلام واحدةً منهن؟ الجـوابُ بالنفي. ولهذا نقولُ: إنَّ عسى هُنا لم تَقَعْ، وموضوعُها الذي دخلت عليه لم يقع.

* * *

[٣٧]
«كاد في القرآن»

«إثباتها نفي، ونفيها إثبات»

كادَ: فعلٌ ماضٍ ناقص، تعملُ عملَ «كان» فترفعُ الاسمَ وتنصبُ الخبر، وخبرُها في القرآنِ دائماً جملةٌ فعلية، مجرَّدةٌ من «أَنْ» الناصبة المصدرية. أيْ: خبرُها عكسُ خبرِ «عسى» ـ الذي يأتي دائماً جملةً فعليَّةً مقترنةً بحرفِ «أَنْ» ـ.

وكادَ من أفعالِ المقاربة.

قالَ الإمامُ الراغبُ في معناها وعملِها: «وَوُضِعَ «كادَ» لمقاربة الفعل، يقال: «كادَ يفعلُ» إذا لم يكنْ قد فَعل. وإذا كانَ معه حرفُ نفي، يكونُ لما قَدْ وقَعَ، ويكونُ قريباً منْ أَنْ لا يكون»(١).

وقد وردتْ «كادَ» وتصريفاتُها أربعاً وعشرين مرة في القرآن.

منها ستُّ مرات مسبوقةً بحرفِ النفي، وخبرُها منفي.

وعندما ننظرُ في المرات التي وردَتْ فيها مثبَتَة ـ ثماني عشرة مرة ـ ونلاحظُ المعنى الذي تقرِّرُه، نجدُ أنها وردَتْ لنفيِ حصولِ الشيء، ودلَّتْ على عدمِ وقوعِه.

مِثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾(٢). فهَلْ رَكَنَ إِلَيْهِمْ؟ كلّا، لم يَرْكَن إليهم!

---

(١) المفردات: ص ٤٤٣

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٤.

ومنهُ قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾[1] مع أنَّ البرقَ لم يخطفْها!

أمّا المراتُ التي وردَتْ فيها منفية ـ ستّ مرات ـ فإنها تدلُّ على حصولِ الشيءِ ووقوعِه. ولكنه قريبٌ من عدمِ الوقوع، فكأنَّه لم يقعْ، ولكنه وقع!

من ذلكَ قولُه تعالى في قصة «بَقَرة بني إسرئيل» وذبحهم لها في آخر الأمر: ﴿قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[2].

ومنه قولُ فرعونَ عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾[3] معَ أنَّ موسى يبينُ ويتكلَّم.

لهذا نقولُ: إذا دخلتْ «كادَ» على جملة مثبَتَةٍ دلَّتْ على عدم وقوعها، وإذا دخلتْ على جملةٍ منفية، دلَّت على وقوعِها. أو: نفيُها إثبات، وإثباتُها نفي!

* * *

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧١.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٥٢.

[٣٨]
«يوسف ـ عليه السلام ـ»

«ما همَّ بامرأة العزيز»

أثبتَ القرآنُ لامرأةِ العزيز مراودتَها ليوسف ـ عليه السلام ـ وصرَّحتْ آيةٌ منه بأنَّها هَمَّت به الفاحشة.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾(١).

لا إشكالَ في نسبة الهمِّ إلى امرأةِ العزيز، لأنَّ الآيةَ تقرِّرُ ذلك: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾.

ومعلومٌ أنَّ همَّها بيوسف كان همَّ الفاحشة، لأنَّ الآيةَ السابقة، أثبتَتْ لها مراودةَ يوسف ـ عليه السلام ـ.

لكن كيفَ نفهمُ قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّه﴾؟

---

(١) سورة يوسف: الأيتان ٢٣، ٢٤.

«ما همَّ بها همّ الفاحشة»

بعضُ المفسِّرين نسبَ الهمَّ ليوسف بامرأةِ العـزيز، وذهبَ إلى أنَّ همَّـه كانَ همَّ الفاحشة، واعتبرَ هؤلاء «الواوَ» في قوله «وَهَمَّ بها» عاطفةً على همِّهـا هي به، فقرأوا الآيةَ هكذا: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها».

وذهبَ هؤلاءِ إلى الأساطيرِ والإسرائيلياتِ في بيانِ البرهان الذي صـرفَ يوسف عن فعلِ الفاحشة. فمنهم من اعتبـرَ برهـانَ ربه هـو تمثُّل صـورةِ أبيه «يعقوب» أمامَه على الجدارِ ينهاهُ عن الفاحشة، ومنهم من اعتبرَه كتابةَ آياتٍ من القـرآن تبيِّن حرمـةَ الزنـا، ومنهم من اعتبرَه «جبـريـل»، الـذي أرسله اللَّهُ إليه، فلحقَ به وهو قاعدٌ عندها، فضربَهُ في ظهره، فـأخرجَ الشهـوةَ منه. إلى غير ذلك من الخرافات والأباطيل.

«ولا همَّ بها همّ الضرب»

ومنهم من نفى عن يوسف همَّ الفاحشة، واعتبرهُ هَمّاً من نوعٍ آخر.

نَفَـوْا عن يوسف الهمَّ بـالفاحشـة، لأنَّ الأنبياءَ معصـومون عن ارتكـابِ الفواحش، وعن الهمِّ بها، قبلَ النبوَّةِ وبعدَها. ونحنُ معهم في هذا النفي.

واعتبروا أَنَّ «الواوَ» في قـوله «وهَمَّ بهـا» عاطفـة، وقرأُوا الجملتَيْن معـاً «وَلَقَـدْ هَمَّتْ بِـهِ وَهَمَّ بِهـا»، وذهبـوا إلى أَنَّ همَّـه هـو همُّ الضـرب، أيْ همَّ بضربها ورفعَ يده بالضرب، ولكنه لم يضربْها لرؤيته برهانَ ربه، وبـرهانُ ربِّـه عند هؤلاء هو شعـورُه بالحـرج والخجل من ضـرْبها، لأنـهُ لا يليقُ برجـلٍ أَنْ يضربَ امرأة، فكيفَ إذا كانت المرأةُ سيدتَه!

ولسْنا مع هؤلاء في إثباتِ الهمِّ ليوسف، وتفسيرِه بهمِّ الضرب.

«أدلة نفي الهم كله عنه»

إنَّ تـركيبَ الآية وصيـاغتها تـوحي بأنـه لم يهمَّ بها، وتنفي عنه الهمَّ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ. وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّه﴾.

نَرى أَنَّ «الواوَ» استئنافية وليستْ عاطفة ويجبُ الوقوفَ على الضميرِ في «به» فتُقرأُ هكـذا «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِـه»، ثم يستأنفُ القـارىءُ: ﴿وَهَمَّ بِها لَـوْلا أَنْ رَأى بُرْهانَ رَبِّه﴾.

وجملةُ «هَمَّ بهـا» جوابُ الشـرط، لحرف الشـرط «لَوْلا» مقـدَّم عليهـا. وترتيبُ الجملةِ هكذا: «لولا أَنْ رَأىٰ بُرهانَ رَبِّه لهم بها».

ومعلومٌ أَنَّ «لَـوْلا» حرفُ امتنـاعٍ لوجـود، فيمتنعُ تحقُّقُ جـوابِ الشـرط لوجودِ فعل الشرط.

وهنا امتنعَ حصولُ جواب الشـرط «هَمَّ بها»، لـوجودِ فعـلِ الشَّرط «أَنْ رَأى برهان ربه».

وبرهانُ ربِّـه هو إيمـانُه القـويُّ بالله، وشعـورُه بمراقبتـه، وحرصُـه على عدمِ مخالفته، واجتنابُه للمعاصي والذنوب.

لهذه الأدلةِ نقـرِّرُ أنَّ يوسف عليـه السلام مـا همَّ بامـرأة العزيـز، لا همَّ الفاحشة لأنه منزَّه من ذلك، ولا همَّ الضربِ لعدم توفُّر الأَدِلَّة على ذلك.

فـاستخدامُ أداة الشـرط «لولا» دونَ غيـرها، ليَفْهَمَ القـارىءُ من معناهـا وعملِها، نفيَ الهمَّ بالضرب أو الفاحشةِ عن يوسف عليه السلام.

* * *

[٣٩]
«يأفكون: المبنيَّة للمعلوم»

وردَ الفعلُ «أفِكَ» واشتقاقاته في حالتَيْن:

البناءُ للمعلوم، والبناءُ للمجهول.

وردَ مبنيّاً للمعلوم ثلاثَ مرات:

مرتان في قصةِ موسى عليه السلام، أثناءَ تحدّيه للسَّحَرة:

قالَ تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾[١].

وقالَ تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[٢].

ومعنى «يَأْفِكون» في الآيتَيْن: يَكْذِبون بما قدَّموه من حِبالٍ وعصيٍّ، ليصرِفوا الناسَ عن الحقِّ إلى الباطل.

وبُنِيَ الفعلُ للمعلومِ لأنهم همُ الذين قاموا بالإفكِ والكذب، فكانوا آفِكينَ كاذِبين، صارِفين الناسَ عن الحقِّ إلى الباطل.

والمرةُ الثالثة في ورودِ الفعل مبنياً للمعلوم، في قصةِ «هود» ـ عليه السلام ـ مع قومه، حيث قالوا له: ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾[٣]، وقد

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١١٧.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٤٥.

(٣) سورة الأحقاف: الآية ٢٢.

اعتبروا دعوةَ هود ــ عليه السلام ــ إلى التوحيد إفكاً، واعتبروه آفِكاً لأنه صارفٌ لهم عن دينِ آبائهم، الذي ظَنُّوه حَقاً، وظنُّوا هوداً صارفاً لهم عن الحق إلى الباطل.

«الإفك: القلب والصرف»

وقبل أن ننتقلَ إلى بناءِ الفعلِ للمجهول، نتوقفُ لنعرفَ معنى الإفك، واستعمالاتِه في القرآن.

قالَ الإمامُ الراغبُ عن الإفك: «الإفْكُ كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الذي يحقُّ أَنْ يكونَ عليه»[1].

الإفكُ إذن: هو الصرفُ والقلبُ والإعراضُ والافتراء.

و «المؤتفكةُ» و «المؤتَفكاتُ» هي قرى قومِ «لوط» ــ عليه السلام ــ.

قالَ تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ﴾[3].

وسُميتْ قرى قومِ لوط بهذا الاسم، لأنَّ اللّهَ قَلَبها قلْباً عندما عذَّبها، فجعلَ عاليَها سافلَها، فكانتْ قواعدُ البيت إلى أعلى، وسقفُه إلى أسفل.

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾[4].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ١٩.
(٢) سورة النجم: الآية ٥٣.
(٣) سورة التوبة: الآية ٧٠.
(٤) سورة هود: الآية ٨٢.

ونلاحظُ أنَّ عذابَهم كان بسببِ جريمتهم، فهمْ قـد انحرفـوا عن الفطرةِ السـويَّة، وانصـرفوا عن الاستمتـاعِ بالنسـاءِ إلى الشـذوذ مـع الـرجـال، وهمْ بإتيانهم الرجالَ شهوةً من دون النساء كـانوا آفِكين، منصـرِفين عن الفطرة إلى الشذوذ، ولذلكَ ناسَبَ أن يكونَ عذابُهم بالقلبِ من أعْلَى إلى أسفل.

«والإفك الكذب»

و «الإفكُ» هو الكذبُ والافتراءُ وقلبُ الحقائقِ وصرْفُها إلى الباطل.

وقـد أُطلقَ الإفكُ على الإشـاعةِ الأُكـذوبة التي أَطلقهـا المنـافقـون في المدينة، واتَّهموا فيها أُمَّ المؤمنين «عائشة» ـ رضي الله عنها ـ بالفاحشة. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾[1].

وهو إفك، لأنَّه قلبٌ للحقائق، وصرفٌ لَها إلى الباطل. فعائشةُ عنـوانُ الطهارة والعفةِ والفضيلة، فكيفَ تُتَّهَمُ بالفاحشة؟

والأفَّاكُ هو صانعُ الإفك ومروِّجُه وناشرُه. قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧﴾[2].

* * *

(١) سورة النور: الآية ١١.

(٢) سورة الجاثية: الآية ٧.

[٤٠]

«يُؤْفَكون: المبني للمجهول»

وردَ الفعلُ مبنياً للمجهول ثلاثَ عشرَةَ مرة.

مرةً منها كانَ فعلاً ماضياً: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾(١).

ومرتان كانَ الفعلُ المضارع مسنَداً للمفرَد:

الأولى: المذكورةُ في الآيةِ السابقة.

والثانيةُ: في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٦٣﴾(٢).

ووردَ أَربعَ مرات للمخاطبين، بصيغةِ الاستفهامِ الإنكاريّ، في عبارةٍ موحَّدة، وهي قولُه تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٩٥﴾(٣).

ووردَ الفعلُ ستَّ مراتٍ للغائِبين: خمسَ مراتٍ منها بصيغةِ الاستفهامِ الإنكاري ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٧٥﴾(٤)، والمرةُ السادسةُ كانَ فيها جملةً خبرية ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥﴾(٥).

ما هي الحكمةُ مِن ورودِ الفعل «يُؤْفَكون» بعدَ اسمِ الاستفهامِ «أنّىٰ»؟

---

(١) سورة الذاريات: الآية ٩.

(٢) سورة غافر: الآية ٦٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٩٥.

(٤) سورة المائدة: الآية ٧٥.

(٥) سورة الروم: الآية ٥٥.

إنهـا إنكارٌ على الكفّـار لانصـرافِهم عن الحقِّ إلى البـاطـل، واستبعـادٌ لقلبِهم الحقَّ إلى الباطل، ورفضٌ لاتِّباعهم الباطل!

«الحكمة من حذف الفاعل»

ما هي الحكمةُ من حذفِ الفاعل، وبناءِ الفعل للمجهول؟

لعلَّها لأجلِ تعميمِ الفاعل، وعدمِ تعيينِه وتحديدِه.

إنَّ الفـاعـلَ يحتمـلُ عـدةَ احتمـالات: إنَّ الـذي يصـرفُ الكفـارَ عن الإيمانِ بالله ليس شخصاً معيَّناً، ولا أمراً محدَّداً.

قد يكونُ هـذا الفاعـل: الشيطانَ، أَو الهـوى، أَو الشبهة، أَو الشهـوة، أَو النفس، أَو قرين السوء، أَو العرف الباطل، أَو التقليد الأعمى، أَو المصلحة الذاتية، أَو الدنيا الخادعة، أَو غيرَ ذلك.

ثم إن لكـلِّ نفس ما يصـرفُها ويـأفِكُها عن الإيمـان بـالله، فهنـاك نفسٌ يـأفكُها الشيـطان، ونفسٌ أُخْرى يـأفِكُها قـرينُ السـوء، ونفسٌ ثـالثـة يـأْفِكُهـا الهوى. . . وهكذا.

لهذه الأسبابِ حُذف الفاعل، وبُنِيَ الفعلُ للمجهول. ـ والله أعلم ـ.

* * *

[٤١]

«كيف كانت مريم: من القانتين؟»

قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾[1].

نلاحظُ أنَّ الآيةَ تتحدثُ عن مريمَ ــ رضي الله عنها ــ وتصفُها بأنها أحصنتْ فرجَها، وصانته عن الفاحشة، وأنَّ اللّهَ نفخَ فيه من روحه، وأنها كانتْ مصدِّقَةً بكلماتِ الله وكتبه.

وتخبرُ الآيةُ عن مريم بأنها ﴿كانَتْ من القانتين﴾، فتجعلُها ضمنَ القانتين، وتدرجُها معهم.

وهذا هوَ الذي يثيرُ التساؤل!

إنَّ مريم ــ رضي الله عنها ــ أُنثى، ولذلك يجبُ أنْ تكونَ مع الإناثِ من بناتِ جنسها، والأصلُ أنْ تقولَ الآية «وكانَتْ مِنَ القانِتات»، لأنَّ «القانتات» جمعُ مؤنَّث سالم، و «القانتين» جمعُ مذكَّر سالم.

«الحكمة من العدول عن المؤنث إلى المذكر»

فلماذا عدَلَ عن جمعِ المؤنث إلى جمع المذكر؟

لعلَّ الحكمةَ في ذلك، هي ما قامتْ به مريم ــ رضي الله عنها ــ وما اتصفتْ به: لقد حمَلَتْ بعيسى ــ عليه السلام ــ ووضعَتْه، ثم جاءَتْ به

(١) سورة التحريم: الآية ١٢.

قومَها، تحملُه على حضنها، كما قالَ تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾[1].

لقد واجهتْ مريمُ قومَها، بعزيمةٍ وثباتٍ وجرأةٍ وشجاعة، كما أنَّ إيمانَها بالله، وتصديقَها بوعدِه وكلماتِه وكتبِه، قد بلغَ أعلى درجة وأرفع مستوى.

إن إيمانها وتصديقَها يكادُ يشبهُ إيمانَ القانتين وتصديقَهم، كادتْ تملكُ مثلَ ما عند القانتين من إيمانٍ وثباتٍ وشجاعة وجرأةٍ وثقةٍ ويقين. وكادتْ تشبهُ القانتين في هدوءِ أعصابهم، وطمأنينةِ قلوبهم، وعِظَمِ مواقفهم.

لأجلِ وجوهِ الشبه هذه بينَها وبين القانتين، ناسبَ أنْ تُدرجَ فيهم، وأَنْ تتحولَ الكلمةُ التي تخبرُ عنها من جمع المؤنثِ السالم إلى جمعِ المذكر السالم. ـ والله أعلم ـ.

* * *

(١) سورة مريم: الآية ٢٧.

[٤٢]

«تذكير الفعل: إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات»

قالَ تعالى: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ﴾(١).

وهذا قريبٌ مما قلناهُ عن مريم ـ رضي الله عنها ـ إذْ تتحدثُ الآيةُ عن هجرةِ المؤمناتِ من مكةَ إلى المدينة، بعدَ صلحِ «الحديبية»، ليلتحقْنَ بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في المدينة.

وكلمةُ «المؤمنات» جمعُ مؤنَّث سالم، والأَصلُ أَنْ يؤنَّثَ فعلُها «إذا جاءَتْكم المؤمناتُ مهاجراتٍ»، فلماذا عدَلَ عن تأنيثِ الفعل «جاءَ» إلى التذكير؟

«التوجيه النحوي»

النحويّون يجيبونَ جواباً نحويّاً، فيقولونَ: الجموعُ مؤنثة تأنيثاً مجازيّاً، وليس حقيقياً. وكلُّ ما كانَ مؤنَّثاً تأنيثاً مجازياً يجوزُ في فعلِه التذكيرُ والتأنيث، فيقولون: جاءَ الرجال، وجاءت الرجال. وقَدِمَ النساءُ، وقدمت النساء!

فجاءت الآيةُ على الجواز، ومتفقةً مع القاعدةِ النحوية في تذكيرِ الفعل وتأنيثه.

(١) سورة الممتحنة: الآية ١٠.

«الحكمة الحركية الجهادية»

وكلامُ النحويين صحيحٌ لا غبارَ عليه.

لكننا نحاولُ أَنْ نضيفَ له بيانَ الحكمة في العدولِ عن التأنيثِ إلى التذكير.

إنَّ تلكَ المؤمنات الصادقات لمّا هاجرْنَ في سبيل الله، قد قمنَ بعملٍ عظيم، وجهادٍ أَصيل، وتحمَّلْن في سبيلِ ذلك مشقَّةً بالغةً، وأذى شديداً.

وهذه الأعمالُ من مهامِّ الرجال، لأَنها تتفقُ مع طبيعتِهم وتكوينِهم، أَما النساءُ فإنهن ـ غالباً ـ يُؤْثِرْنَ الراحةَ والدَّعة، ويتجنَّبْنَ المشقةَ والتعبَ. كما قالَ الشاعر:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ عَلَيْنا ... وَعَلى الغانِياتِ جَرُّ الذُّيولِ

أَمّا المؤمناتُ المهاجراتُ فقد خالفْنَ هذا، وفضَّلْنَ المشقةَ والتعبَ والنصب. وقُمْنَ بالهجرةِ والجهاد، واقتَحَمْنَ الخطرَ والهول، وصبَرْن على الأَلمِ والجهدِ والمعاناة، انتصاراً لدينِهن، وتحقيقاً لإِيمانِهن، وطلباً لمرضاةِ ربِّهن.

إنَّ الجوَّ جوُّ رجولةٍ وجهاد، وتحمُّلٍ وثبات، فناسبَ أَنْ يتحوَّلَ الفعلُ «جاءَكُم» منَ التأنيثِ إلى التذكير، وكأَنَّ هذهِ الرجولةَ انعكستْ على الفعلِ، فقلبَتْ تأنيثَه إلى تذكير. ـ والله أعلم ـ.

* * *

[٤٣]
«الإيمان المؤكد الذي لم يتحقق!»

كم مرةً وردَ الإيمانُ فعْلاً مؤكَّداً بنونِ التوكيدِ في القرآن؟

وردَ أربعَ مرات هي:

١ ــ أُسندَ فعلُ الإيمان إلى المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾(١).

«تُؤْمِنُنَّ» فِعلٌ مضـارع للمخاطَبين، مؤكَّـد بنونِ التـوكيد الثقيلة. وتخبـرُ الآيـةُ أنَّ اللَّهَ قد أَخـذَ العهدَ على الأَنبيـاءِ السابقين جميعـاً، أَنَّ مَنْ بقيَ منهم حيّاً، حتى بعثةِ محمـدٍ ــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ــ فعليـهِ أَنْ يؤمنَ به، ويتَّبِعَـه وينصرَه، فوافقَ الأنبياء، وأعطوا العهد: ﴿ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾(٢).

لكنْ هـل تحقَّق الإيمانُ هنـا في عالَم الواقع؟ بمعنى آخـر: هَـل بقيَ أَحـدٌ من الأنبيـاء السـابقين حيّـاً على وجْـهِ الأرض وأدرك بعثـةَ محمـد ــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ــ؟

الجوابُ بالنفي، لقد غادرَ الأَنبياءُ السابقون جميعاً هذه الدنيـا قبلَ بعثـة الرسول عليه السلام، ولم يقابِلْ محمـدٌ عليه الصـلاة والسلام أَحـداً منهم في

(١) سورة آل عمران: الآية ٨١.
(٢) سورة آل عمران: الآية ٨١.

عالم الواقع على وجْه الأَرض ـ ولا يَرِدُ هنا اجتماعُه بالأَنبياء ليلةَ الإسـراء في بيتِ المقـدس وفي السمٰوات العلى، فهـذه معجزةٌ خـاصة، وهم لم يكـونـوا وقْتَها أَحياءً على وجه الأَرض ـ.

إذَنْ الإيمانُ المؤكَّدُ هنا «لَتُؤْمِنُنَّ» لم يتحقَّقْ في عالَم الواقع.

«إيمان النصراني بعيسى غير مقبول»

٢ ـ أَخبرَ القرآنُ أَنَّ كلَّ نصراني يعرف حقيقة عيسى ـ عليه السلام ـ وأَنه عبدُ الله ورسوله، وهـو يَحتَضِرُ على فـراش الموت، فيؤمِنُ بـه، لكن في وقتٍ لم يُقْبَل فيه الإيمان. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾(١).

الراجحُ في معنى الآية: أَنه ما مِنْ نصرانيٍّ إلاَّ سيؤمنُ بعيسى بن مـريم ـ عليه السلام ـ وهو عَلى فراشِ الموت، ويعرفُ وقتَها أَنه عبدُ الله ورسوله، وليس إلهـاً كما كـانَ يزعم، لكنـهُ آمنَ بعيسى في وقتٍ لم يُقبلْ فيـه الإيمان، لأَنَّ الإيمانَ والتوبةَ لا يُقْبَلان عند الموت: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾(٢).

وبمـا أَنَّ إيمـانَ النصرانيِّ بعيسى ـ عليـه الســلام ـ حصـلَ في وقتٍ لم ينفَعْ فيه صـاحبَه، فكـأَنه لم يـوجَدْ ولم يتحقَّقْ ولم يحصُـلْ، لقد وُلِـدَ ميتاً بموتِ صاحبه.

إذن الإيمـانُ المؤكَّـدُ هنـا «لَيـؤْمِنُنَّ» لم يتحقَّقْ ولم يحصُــلْ في عـالم الواقع.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٥٩.

(٢) سورة النساء: الآية ١٨.

«فرعون نكث بوعده لموسى»

٣ ـ لمّا أوقعَ اللَّهُ العذابَ على فرعون وقومـه بسبب تكذيبِهم لمـوسى ـ عليـه السلام ـ طلَبـوا من موسى أَنْ يـدعوَ لهم ربَّـه ليرفـعَ العذابَ عنهم، ووعـدوه أَنْ يؤمنوا بـه، فلمّا دعـا موسى ربَّـه، ورفعَ الـرِّجزَ والعـذاب عنهم، لم يؤمنوا، ونكثوا في عهدهم، وعادوا إلى التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾[(١)].

هل تحقَّقَ الإيمانُ المؤكَّد «لَنُؤْمِنَنَّ» في عالَم الواقع؟ إنَّ فرعـونَ وقومَـه لم يؤمنوا، ولذلك لم يتحقَّق.

«المشركون يحلفون كاذبين»

٤ ـ طلبَ المشـرِكـونَ من رســول الله ـ صلَّى اللَّه عليـه وسلَّم ـ أَن يقدِّمَ لهم آيةً حسية، ومعجزةً مادية، وأَقسمـوا أَنهم سيؤمنون إذا جـاءَهم بها، ووعدوه أَنْ يؤمنوا وأَكَّدوا ذلك.

قالَ تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾[(٢)].

هل كانوا صادقين في وَعْدهم وقَسَمِهم؟ هل سيؤمنونَ إذا جاءتهم آيـة؟ كَلَّا، لقد كانوا كاذِبين في وُعودهم وأَيْمانهم وتأكيدهم. فقدْ أخبرَ اللَّهُ أَنهم إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان ١٣٤، ١٣٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٩.

فالإيمانُ المؤكَّدُ هنا «لَيُؤْمِنُنَّ» لم يتحقَّقْ، ولم يوجَدْ في عالَم الواقع.

من هذا الاستعراضِ، لمرّاتِ ورودِ الإيمان مؤكَّداً، في صورةِ الفعلِ المضارع، في القرآن ــ وهي أربعُ مرات فقط ــ نخرجُ بهذه اللطيفةِ القرآنية:

الإيمـانُ المؤكَّدُ في القـرآنِ لم يتحقَّق عمليّـاً، ولم يحصـل في عـالَم الواقع.

لماذا الإيمانُ المؤكَّد في القرآن لم يتحقق؟ وما هي الحكمةُ من ذلك؟

«الإيمان الصادق لا يحتاج لتوكيد»

يبدو أَنَّ الإيمان الصـادق لا يحتاجُ إلى التـوكيدِ اللفـظي باللسـان، لأَنَّ الإيمانَ هو التصديقُ واليقينُ والطمـأنينة، ومتى مـا استقرَّ الإيمـانُ في القلب، انعكسَ على الجـوارحِ والسلوك، وأَثَّر في حيـاةِ صاحبـه، فصـارَ سلوكُ هـذا المؤمنِ صادراً عن ذلك الإيمان، وملتزِماً بتوجيهاته.

إنَّ المؤمنَ الصادقَ لا يحتاجُ إلى توكيد لفظه، لأَنَّ عملَه وسلوكَه تـوكيدٌ عمليٌّ لإيمانه.

المؤمنُ لا يحتاجُ إلى دعايةٍ إعلاميـة لإيمانـه، لأَنَّه يقـدِّم نفسَه وسلوكَـه وعملَه بُرهاناً عملياً على قوةِ إيمانه، ودلالةُ الفعل عندَهُ أَقوى من دلالةِ القول.

وإذا رأَينا إنساناً يعملُ دعايةً لإيمانه، ويزعمُ أنه صـاحبُ إيمان عـظيم، ويؤكِّدُ ذلك بمختلفِ المؤكِّدات، وبأَغلظ الأَيْمان، فإننا نشكُّ في صـدقِه وفي تحقُّقِ وعوده، لأَنَّ ذا النقصِ هو الذي يحتاجُ للدعاية!

والقرآنُ يوحي لنا بذلك، لأَنَّ الإيمانَ المؤكَّدَ فيه، لم يتحقَّقْ في عـالم الواقع. ــ والله أعلم ــ(١).

* * *

(١) انظر مبحث «القرآن والإيمان» من كتابنا «في ظلال الإيمان».

[٤٤]

«الإيمان المميَّز المميِّز»

كم مرَّةً وردَ الإيمانُ منصوباً، مجرَّداً من أل التعريفِ ومِنَ الإضافة، في القرآنِ الكريم؟ وما هو إعرابُه في هذه المرَّات؟

لقدْ وردَ «الإيمانُ» منصوباً، مجرَّداً من أل التعريفِ ومن الإضافةِ سبعَ مرات. هي:

١ ـ قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾(١).

٢ ـ قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾(٢).

٣ ـ قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾(٣).

٤ ـ قالَ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾(٤).

٥ ـ قالَ تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾(٥).

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٣) سورة التوبة: الآية ١٢٤.

(٤) سورة التوبة: الآية ١٢٤.

(٥) سورة الأحزاب: الآية ٢٢.

٦ ــ قالَ تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾[1].

٧ ــ قالَ تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَـٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ﴾[2].

ما هوَ السياقُ الذي وردَتْ فيه كلمةُ «إيماناً» منصوبة؟ وما هوَ إعرابُها؟ وما هي الحكمةُ من ذلك؟

الآياتُ السبعة كلُّها تتحدثُ عن المؤمنين، وتُثني عليهم، وتمدحُهُم لقوةِ إيمانِهم، وعظمتِه وزيادتِه وأثرِهِ عليهم.

«من دلالات الآيات»

وإنَّ الناظرَ في الآياتِ يُلاحظُ فيها ما يلي:

١ ــ الآياتُ كلُّها تتحدثُ عن المعركةِ بين المؤمنين وبينَ الكفار، وهذه المعركةُ قد تكونُ ماديةً عمليَّةً مَيْدانية، كما في آياتِ سُوَرِ: آل عمران والأنفال والأحزاب والفتح.

وقد تكونُ معركةً نظريةً فكرية عقيدية، كما في آيات سورتَيْ التوبة والمدثر.

وهذا يدلُّ على الارتباطِ الوثيقِ بين الإيمانِ وبينَ المعركة مع الأَعداء، حيثُ يزيدُ الإيمانُ عند المعركةِ والمحنة والمواجهة.

٢ ــ وردَ الحديثُ في المواضع السبعة كلِّها عن زيادةِ الإيمان، ووردت الزيادةُ فيها بالنص.

وهذا يدلُّ على أَنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقص، يزيدُ بالطاعة، وينقصُ

(١) سورة الفتح: الآية ٤. (٢) سورة المدثر: الآية ٣١.

بالمعصية. ودخولُ المؤمن للمعركة ومواجهتُه الأعداءَ من أَسبابِ وعواملِ زيادة الإيمان.

٣ ــ كلمةُ «إيماناً» في المواضع السبعة كلِّها جاءتْ «تمييزاً» منصوباً، أيْ: إنها ميَّزَت المؤمنين بإيمانِهم، وميَّزتِ الزيادةَ الحاصلة بأنَّها زيادةٌ في الإيمان!

إنَّ التمييزَ في اللغة يوضِّحُ كلمةً غامضة، أَو يبينُ موقفاً مبهَماً، أَو يفصِّلُ معنى مجمَلاً، أو يحدِّدُ شيئاً واقعاً، أَو يجيبُ على تساؤل.

فلو تساءَلْنا: ما الذي ازدادَ عند المؤمنين؟ فالجوابُ: هو الإيمانُ، لقد ازدادوا إيماناً.

«الإيمان مميَّز مميِّز»

الإيمانُ في المواضعِ السبعةِ جاءَ مُمَيَّزاً ــ اسمَ مفعول ــ وجاءَ مُمَيِّزاً ــ اسمَ فاعل ــ.

هو مميَّزٌ بأنه إيمانٌ قويٌّ ثابت، بل إيمانٌ يزدادُ عند المحنةِ والخطرِ، فهو إيمانٌ مميَّزٌ مخصوص، ليسَ كإيمانِ المسلمين العاديين، الذين لم يتحرَّكوا بإسلامهم، ولم يواجِهوا الأعداءَ بإيمانهم.

ثم هو إيمانٌ مميِّزٌ، ميَّزَ المؤمنين بأَنَّهم قومٌ مخصوصون، تميَّزوا عن الآخَرين بإيمانِهم وثقتِهم وهدوئِهم وطمأنينتهم.

إنهم لولا الإيمانُ القويُّ المميِّز لما تميَّزوا، ولَما اشتَهروا، ولَما عُرِفوا بين الناس.

جاء «الإيمانُ» تمييزاً، حيثُ تميَّزَ بكونه تمييزاً لمؤمنين متميِّزين بإيمانِهم المتميِّز[١]!!

* * *

(١) انظر مبحث «القرآن والإيمان» من كتابنا «في ظلال الإيمان».

[٤٥]

«مرحلتان للإيمان: به، ثم له»

أحياناً كانَ الفعلُ «آمَنَ»، يتعدّى إلى ما بعدَهُ بحرفِ الجرّ «الباء»، كأَنْ يُقال «آمنتم به».

وأحياناً أُخرى كانَ يتعدّى بحرفِ الجرّ «اللام»، كأَنْ يُقال «آمنتم له».

فلماذا هذا التنويعُ بيْنَ الحرفيْن؟ وما هو الفرقُ بين العبارتيْن؟

معظمُ المواضعِ كانَ التعدي فيها بحرفِ «الباء»، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾[1].

وكما في قولِ فرعونَ للسحرةِ منكِراً عليهم إيمانَهم بموسى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[2].

وهناكَ مواضعُ قليلة، تعدّى فيها الفعلُ بحرفِ «اللّام»: «آمنتم له»، لا تتجاوزُ عشرةَ مواضع.

منها قولُ فرعون للسَّحَرة منكِراً عليهم اتِّباعَهُم لموسى ـ عليه موسى ـ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ في سورتي طه والشعراء[3].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٢٣.

(٣) سورة طه: الآية ٧١، وسورة الشعراء: الآية ٤٩.

ومنها قولُ الله عن لوطٍ وإبراهيمَ ـ عليهما السلام ـ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾[1].

ومنها قَطْعُ أطماعِ المؤمنين في استجابةِ اليهود لهم واتِّباعِهم إيَّاهم: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾[2].

«الإيمان به: تصديقه»

الإيمانُ بالنبيِّ أو بالشخصِ غيرُ الإيمانِ له.

الإيمانُ به معناه: تصديقُه، والاستجابةُ لدعوته، والدخولُ في دينه، وهذا لا يكونُ إلَّا بعدَ الثقةِ بهِ والاطمئنانِ إليه، والشعورِ بأنه صادق، واليقينِ بأنه على الحق.

لأنَّ الإيمانَ هو التصديقُ والثقةُ والطمأنينةُ واليقين.

«الإيمان له اتباعه»

وبعدَ الإيمانِ بهِ يأتي الإيمانُ له.

الإيمانُ له يعني الاستسلامَ له، والانقيادَ له، واتباعَه وطاعتَه. وهذا لا يتحقَّقُ إلَّا بعدَ الإيمان بِه وتصديقِه.

ولهذا لمّا جاءَ إخوةُ يوسف إلى أبيهم «يعقوب» ـ عليه السلام ـ بعد جريمتهم النكراء في إلقاءِ يوسف في البئر، وزعموا أن الذئبَ قد أكله، علموا أن أباهم لا يصدِّقُهم، ولا يثقُ بكلامِهم، ولا يطمئنُّ إليهم: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ

(١) سورة العنكبوت: الآية ٢٦.

(٢) سورة البقرة: الآية ٧٥.

لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾[1].

لقد قالَ فرعونُ للسَّحرةِ في سورةِ الأعرافِ: ﴿آمَنْتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟﴾، والمراد هنا تصديقه والدخول في دينه.

بينما قال لهم في سورتي طه والشعراء: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟﴾، والمراد هنا اتباعه والخضوع له.

ولا ننسى أنَّ سورةَ الأعرافِ قبلَ سورتَيْ طه والشعراء ـ في ترتيبِ المصحف على الأقل ـ.

بقيَ أَنْ نَقولَ: إنَّهما مرحلتان متتابعتان:

الأولى: الإيمانُ بالنبي والثقةُ به والاطمئنانُ إليه.

الثانية: الإيمانُ للنبي والاستسلامُ له واتباعُه وطاعتُه والانقيادُ إليه.

وكلُّ مَنْ آمَنَ بالنبي لا بدَّ أَنْ يؤمِنَ له، ويُؤْمِنَ لَهُ، ويتَّبعه.

لقدْ آمنَ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بالنبيِّ محمد صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، ولمَّا آمنوا به آمنوا له.

* * *

(١) سورة يوسف: الآيتان ١٧، ١٨.

[٤٦]
«الحرب الانتقامية ضد المؤمنين»

وردت «النقمةُ» واشتقاقاتُها عدةَ مراتٍ في القرآن.

كما وردَ «الانتقامُ» عدةَ مرات كذلك.

«الفرق بين النقمة والانتقام»

وفرَّق القرآنُ بينَ النقمة والانتقام:

١ ــ النقمة: مصدرٌ للفعلِ الثلاثي «نقم».

والانتقام: مصدرٌ للفعلِ الرباعي «انتقم».

٢ ــ النقمة: وتصريفاتُها مسندةٌ إلى غيرِ الله، مسندةٌ إلى الكفار الأعداء.

الانتقامُ: ــ وتصريفاتُه ــ مسنَدٌ إلى الله فقط.

٣ ــ النقمة: مرضٌ نفسي خبيثٌ يدلُّ على الحقدِ والبغضِ والكراهية. ولذلك وُصِفَ به الكفارُ وأعمالُهم.

والانتقام: هو العقوبةُ على الذنوب والانحراف، ولذلك جاءَ عقوبةً من الله للكفار.

«النقمة في السياق القرآني»

ووقفتُنا هنا مع «النقمة» وتصريفاتها، وليس مع «الانتقام».

وردَ الفعلُ الماضي «نقم» مرتيْن. ووردَ الفعلُ المضارع «ينقمُ» مرتين أيضاً.

١ ــ بيَّنَ القرآنُ سببَ حربِ أصحابِ الأُخدود الكافرين للمؤمنين، وإحراقِهم بالنار. ووصفَ تلكَ الحربَ بأنها حربٌ انتقامية. قال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾[1].

٢ ــ بيَّنَ القرآنُ سببَ معاداةِ المنافقين للمؤمنين، ووصفَ تلكَ المعاداةِ والحربِ بأنها انتقامية، قال تعالى: ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[2].

٣ ــ لمّا آمنَ السحرةُ بموسى ــ عليه السلام ــ هدَّدَهُمْ فرعون، واتَّهمهم بالتآمرِ مع موسى ضدَّ مصلحةِ الوطن، ولكنَّهم بيَّنوا له عداوتَه لهم، ووصفوا هذه العداوةَ بأنها عداوةٌ انتقامية، قالَ تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾[3].

٤ ــ أَمَرَ اللَّهُ رسولَه عليه الصلاة والسلام ــ وكلَّ مسلمٍ مِنْ بَعده ــ أَنْ يبيِّنَ للأعداءِ سببَ حربِهم للمسلمين، ووَصَفَ هذه الحربَ بأنَّها انتقامية:

(١) سورة البروج: الآية ٨.
(٢) سورة التوبة: الآية ٧٤.
(٣) سورة الأعراف: الآيات ١٢٣ ــ ١٢٦.

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

«النقمة وصف لحرب الكفار ضد المسلمين»

نلاحظُ من الآياتِ الأربعةِ السابقة أنَّ الفعلَ «نقم، ينقم» وردَ في سياقِ الحربِ بين المسلمين والكفار.

كما نلاحظُ أنَّها وَصفتْ هذه الحربَ التي يشنُّها الكفّارُ على المسلمين بأنها حربٌ انتقامية، والمعاداةَ التي يَكنّونَها ويُضمِرونها لهم بأنها عداوةٌ انتقامية.

لكنْ ما هي الحكمةُ من قصرِ «النقمة» على حربِ الكفارِ للمسلمين، ووصفِها بهذه الصفةِ المرذولة؟

«النقمة مرض نفسي خبيث»

إنَّ «النقمةَ» مرضٌ نفسيٌّ خبيث، يدلُّ على حقدِ الكفار على أصحاب الحق، ولا ينقمُ أَهلَ الحق ولا ينتقمُ منهم إلَّا حاقدٌ حسودٌ، أسودُ القلب، مريضُ النفس، معوَّق مشوَّه، خالٍ من المشاعرِ والعواطفِ والفضائل.

ثم إنَّ وَصْفَ تلكَ الحربِ بصفةِ النقمة والانتقام، يدلُّ على قسوتِها وعنفِها وبشاعَتِها وعدمِ إنسانيتها.

إنَّ الكفارَ عندما يحارِبونَ أَصحاب الحق، يحاربونهم بكلِّ ما عندهم من حقدٍ وحسدٍ، وبُغضٍ وكراهيةٍ، ونقمة وانتقام.

ويخبرنا التاريخُ أَنَّ الكفار عندما يواجِهون المؤمنين، يُلْغونَ القوانينَ، والأنظمةَ والتشريعاتِ والأعرافَ والمبادىءَ والروابط، ويقاتلونَهُم بنقمةٍ، ورغبة في الانتقام.

* * *

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٩.

[٤٧]
«القرآن يعلِّم الكافر الانتحار»

القرآنُ يسخرُ من الكفار، ويستهزىءُ بهم.

إنَّ الكافرَ لا يريدُ أن يؤمنَ بالله، ويرفضُ أنْ يطيعَ الله، ولا يعجبُهُ أنْ يخضعَ لله، بل لا يريدُ أنْ يكونَ اللَّهُ هو ربَّ العالمين. ولهذا يخضعُ لغيرِ الله، ويتَّخذُ غيرَه ربّاً.

إذا لَمْ يعجبِ الكافرَ كونُ اللَّهِ وحدَه رَبّاً للعالَمين، وإذا غضبَ هذا الكافرُ من الله، وإذا كانت لا تعجبُهُ هذه الحياةُ، فليقتُلْ نفسَه، لينتحرْ.

إنه إذا انتحرَ فلا يجني إلاَّ على نفسِه، ولا يضرُّ إلاَّ نفسَه، أما اللَّهُ فهو وحدَهُ ربُّ العالمين.

«كيفية الانتحار»

يُعلِّمُ القرآنُ الكافرَ كيفيةَ الانتحار، ويدلُّهُ على أسرعِ طريقةٍ لإزهاقِ روحه، وهذا مبالغةٌ منه في سخريتِه بالكافر.

قالَ تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾﴾[1].

تدعو الآيةُ الكافرَ إلى أنْ يقتلَ نفسَه شنقاً، وتُعلِّمُه كيفيةَ ذلك:

عليه أنْ يربطَ حَبْلاً في سقْفِ الغرفة، ويدلِّيه منها ـ لأنَّ «السَّبَبَ» في

---

(١) سورة الحج: الآية ١٥.

الآيةِ هو الحبْل. و «السَّماءَ» في الآيـة هي سقفُ الغرفـة ــ ثم يضَعَ رقبتَـه في الحبل، ثم يُبْعِدَ مـا تحتَه من كـرسيٍّ أو طاولـة، ويقطعَ ذلـكَ الحبل، ليهْـويَ ويسقطَ مخنوقاً مشنوقاً.

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ ما يغيظُ﴾.

هل بقيَ عنده مجالٌ للنظر؟ هل بقيتْ فيه حياةٌ لينظر؟ هـل ما زالَتْ لـه عينان لينظرَ فيهما؟

وهـذه الدعـوةُ الساخـرةُ للانتحـارِ، يهدفُ منهـا القرآن إلى أَنْ يـراجـعَ الكافرُ نفسَه، فيتخلّى عن الكفر، وينحازَ إلى المؤمنين، ويعلنَ إيمانَه بالله!

* * *

[٤٨]

«التمثيل بالكلب والحمار في القرآن»

يضربُ القرآنُ الكريمُ أمثالاً كثيرة، يقرِّبُ بها للسامعين المعانيَ والحقائقَ التي يقرِّرها، وهذه «الأمثالُ القرآنية» كثيرةٌ منوَّعة، وموزَّعةٌ في مختلفِ سور القرآن.

منها أمثالٌ في تصويرِ نماذجَ بشريةٍ لأصنافٍ من البشر، وتصرفاتِهم وأعمالِهم، فهناكَ أمثال للمؤمنين وصفاتِهم، وأمثالٌ للمنافقين وأعمالهم، وأمثال للكافرين وضلالهم.

وهذه الأَمثالُ القرآنية مصوَّرة، بمعنى أنها تعرضُ صوراً فنية متكاملة، يرسمُها خيالُ القارىء، ويتفاعلُ معها، ويتأَثَّرُ بها.

ووقْفَتُنا اليومَ مع مَثَلَيْن مصوَّريْن عجيبيْن، من أَمثالِ القرآن، يضربُهما القرآنُ لنموذجَيْن من البشر، ويصوِّر فيهما حالةَ أُولئكَ البشر. إنهما مَثَلا «الكلبِ» و«الحمار».

«التمثيل بالكلب»

التمثيلُ بالكلبِ في قوله تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ

﴿كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1].

إنَّ المثلَ هنا مضروبٌ للَّذي آتاهُ الله علماً، فانسلخ عن آياتِ الله، وتخلّى عن علمه، تركَ الحقَّ واتَّبعَ الباطل، وكانَ من الغاوين، أخلدَ إلى الأرض، واتَّبعَ هواه. وأَتْبعه الشيطانُ يسوقُه في عالَم الضلالِ والضياعِ، واللهاثِ وراءَ مطامع الدنيا.

هذا العالِمُ الضالُّ، الذي لم يَستفدْ من علمِه، ولم يلتَزِمْ به، اللاهثُ وراءَ المطامعِ والشهوات، مَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب الذي يلهثُ باستمرار، يلهثُ إنْ طُرِدَ، ويلهثُ إنْ طَرَدَ، ويلهثُ إنْ سارَ وإنْ وقفَ وإنْ جَلَس، فالكلبُ دائمُ اللهاث.

وهذا العالِمُ الضالُّ المنسلخُ عن العلمِ النافعِ دائمُ اللهاث.

إنها لصورةٌ زريَّةٌ منفِّرة، لذلكَ العالمِ الضالِّ المنحرفِ عن مقرَّراتِ ما تعلَّمه، ويكفيه قُبحاً وسُوءاً أَنَّ القرآنَ عرَضَه في صورةِ كلبٍ يلهثُ باستمرار[2].

«التمثيل بالحمار»

أما التمثيلُ بالحمار، ففي قولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾[3].

مَنْ هوَ المشبَّهُ بالحمارِ هُنا؟ إنَّهم «أَحبارُ» اليهود، المتخَصِّصون

---

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٧٥ ــ ١٧٧.

(٢) انظر إن شئت كلامنا عن مثل الذي انسلخ من آيات الله في كتابنا: «مع قصص السابقين في القرآن» الحلقة الثالثة.

(٣) سورة الجمعة: الآية ٥.

بـالتوراة، العـالِمون بهـا، همُ الَّـذين تعلَّمـوا التـوراة ودَرسـوهـا وعـرَفـوهـا، وحمَّلَهُمُ اللَّهُ إيّاها، وطالبَهم بالالتزام بها، وتنفيذِ توجيهـاتِها، وطـاعةِ اللَّهِ من خـلالِ نصـوصِهـا، لكنهم لم يَحملوهـا ﴿الَّـذينَ حُمِّـلوا التَّـوراةَ، ثُـمَّ لَمْ يَحْمِلوها﴾.

لقـدْ تعلَّموا التـوراةَ معلوماتٍ نـظريـةً عقليـة، ووضَعـوهـا في عقـولِهم وأذهانهم، تعامَلوا معَ نصوصِ التوراة تعامُلاً ذهنيّاً نـظريّاً عقليّـاً فكريّـاً فقط، لكنهمْ لم يتعامَلوا معها تعامُلاً واقعيّاً حياتيّاً، فلم تنعكسْ نصوصُ التـوراةِ على سلوكِهم وحيـاتِهم وصِـلاتهم وارتبـاطـاتِهم، أيْ لم يستفيـدُوا منَ التـوراة، ولم ينتفِعوا بما فيها.

فمـا هو مَثَـلُ هؤلاءِ «الأحبـار»؟ إنَّ مَثَـلَ هؤلاءِ كَمَثَـلِ الحمـارِ يحمـلُ أَسفاراً.

فـالحمـارُ يحمـلُ على ظهـرِه أَحمـالَ الكتب، وليسَ لـه منهـا إلَّا ثِقَـلُ الحَمْلِ والتعب، ولا يستفيدُ ممّا يحملُ من علمٍ وكتب.

وهكذا هؤلاء، يحملونَ التوراةَ في عقولِهم، لكنهم لم يستفيدُوا منهـا، ولم ينتفعـوا بهـا في حيـاتهم، فمـاذا يفتـرقـونَ في هـذا عن الحمـارِ حـامـلِ الأسفار؟

وهذا التمثيلُ بالحمارِ ينطبقُ على كلِّ عالمٍ لم يطبِّق علمَـه، ولم يستفِدْ منه، ولم ينتفِعْ به، وتعامَلَ مع علمِه تعامُلَ الأحبارِ اليهودِ بنصوصِ التوراة.

من هذا نخرجُ بحقيقةٍ قاطعة: لقدْ ضربَ اللَّهُ في القرآنِ للعلماءِ الذين لم يلتـزموا بعلمهم، ولم يُـطبِّقوه، ولم يستفيـدوا منه، ولم ينتفِعـوا بـه، مثَلَيْن منفِّـرَيْن: مَثَـلَ الكلبِ يلهثُ، ومَثَـلَ الحمـارِ يحمـلُ أسفـاراً. وذلـكَ لقبحِ فعلِهم، وعِظَم خسارتهم، وفَداحةِ ضَرَرِهم!!

* * *

[٤٩]

«ليلة القدر: ليلة السابع والعشرين من رمضان!»

قالَ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ۝٥﴾[١].

تتحدثُ سورةُ القدرِ عن فضلِ ليلةِ القدر، وتخبرُ أَنَّ إنزالَ القرآنِ كانَ في ليلةِ القدر، وتُبيِّن أَنَّها خيرٌ من ألف شهر.

وقد حثَّنا رسولُ الله ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ على إحياءِ تلكَ الليلة وقيامِها. فقال ـ فيما رواه عنه البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ: «مَنْ يَقُمْ لَيْلَةَ القَدْرِ إيماناً وَاحْتِساباً غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِه»[٢].

«أُبيٌّ بن كعب يُقسم أنها ليلة السابع والعشرين»

واختلفَ العلماءُ في تحديدِ ليلةِ القدرة في أيِّ ليلةٍ من ليالي رمضان؟ لكنْ رجَّحَ بعضُ العلماءِ أَنَّها ليلةُ السابع والعشرين من رمضان، وتابَعوا في هذا الرأيِ بعضَ الصحابةِ الَّذين حدَّدوها بذلك.

روى مسلمٌ عن أُبَيِّ بْنِ كَعْب رضي الله عنه قال: واللَّهِ الذي لا إِلَه إلَّا هو! إنها لفي رمضان، ووالله إني لأَعلم أَيَّ ليلة هي، هي الليلةُ التي أَمَرَنا

(١) سورة القدر.

(٢) صحيح البخاري: (٢) كتاب الإيمان: (٢٥)، باب قيام ليلة القدر من الإيمان، حديث رقم: (٣٥).

بهـا رسولُ الله ـ صلَّى اللَّه عليـه وسلَّم ـ بقيـامهـا، هـي ليلةُ صبيحـةِ سبـعٍ وعشرين[1].

«دليلان من السورة على التحديد»

ونحنُ مع «أُبَـيِّ بْنِ كَعْب» والعلماءِ الآخرين في تحديدِ هذه الليلة بليلةِ السـابعِ والعشـرين. ونرى أَنَّ سـورةَ القدر تشيـرُ إلى ذلك، وتحمـلُ إشاراتٍ على أنها ليلةُ السابع والعشرين. ونكتفي من إشاراتها بهاتَيْن الإشارتَيْن:

الأولى: جملةُ «ليلةِ القـدر» مكوَّنـةٌ من تسعـةِ أَحـرف. وقـد وردَتْ في السورةِ ثلاثَ مرّات. ولعلَّ الحكمةَ مِنْ ورودِها ثلاثَ مرات هي الإشـارةُ إلى تعيينِ الليلة. فحاصِلُ ضـربِ عددِ الأَحـرف بعددِ المـرات يُنتجُ تعيينَ الليلة: ٩ × ٣ = ٢٧.

الثانية: كلمـاتُ السورةِ ثـلاثونَ كلمـة ـ على عددِ أَيّـام الشهر ـ ورقمُ كلمـةِ «هي» ـ الضميرُ المنفصـلُ الذي يعـودُ على ليلة القدر ـ هـو السـابـعُ والعشرون في عدِّ الكلمات. وكأنَّ الآيةَ تقولُ لنا: هي السابـعُ والعشرون من رمضان! ـ والله أعلم ـ.

* * *

---

(١) صحيح مسلم: (٦) كتاب صلاة المسافرين، (٢٥) باب الترغيب في قيام رمضـان، حديث رقم: (٧٦٢).

[٥٠]
«جولة سريعة مع النعمة في القرآن»

«مع الإمام الراغب في كلامه عن النعمة»

قالَ الإمامُ الراغبُ الأَصفهانيُّ في كلامِه عن «النِّعمة» واشتقاقاتِها وتصريفاتِها، والفروقِ بين صيغها:

(«النِّعمةُ» الحالةُ الحسنة، وبناءُ النِّعمةِ بناءُ الحالةِ التي يكونُ عليها الإنسانُ، كالجِلسةِ والرِّكبة.

و «النَّعمة»: التنعُّم، وبناؤُها بناءُ المرَّة من الفعل، كالضَّربةِ والشَّتمة.

والنِّعمةُ للجنس، تُقالُ للقليلِ والكثير.

و «الإنعامُ»: إيصالُ الإحسانِ إلى الغير، ولا يُقالُ إلاَّ إذا كان المُوصَلُ إليه من جنسِ الناطقين، فإنَّه لا يُقالُ: أنعمَ فلانٌ على فَرَسِه.

و «النَّعِيمُ»: النِّعمةُ الكثيرة.

و «النَّعَمُ» مختصٌّ بالإبل، وجمعُه أنعام، وسمِّي بذلك لكونِ الإبلِ عندهم أَعظمَ نِعمة، لكنَّ الأَنعام تقالُ للإبلِ والبقرِ والغنم، ولا يُقالُ لها أنعام حتى يكونَ في جملتِها الإبل.

و «نِعْمَ»: كلمةٌ تستعملُ في المدْح، بإزاءِ بئْسَ في الذَّمِّ. وأَصلُها من الإنعام.

و «نَعَمْ»: كلِمةٌ للإيجاب، من لفظِ النِّعمة. تقول: نَعَمْ ونَعْمَةُ عين، ويصحُّ أَن يكونَ من لفظِ «أَنْعَمَ منه»، أَيْ: أَلْيَنَ وأَسْهَلَ)[1].

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ باختصار.

«مع النعمة في صورتها الفعلية»

وردت «النعمةُ» في صورتِها الفعلية ثماني عشرة مرَّة. وأُضِيفَ الفعلُ فيها إلى الضمائِر التالية: «نَعَّمَهُ» و «أَنْعَمْتُ» و «أَنْعَمْنا» و «أَنْعَمَها».

ونلاحظُ من هذه المرّات بعضَ اللطائف:

«حكمة التعبير بالماضي»

١ ـ وردتْ في المرّات كلِّها «فعلاً ماضياً» فلم تَرِدْ فعلَ مضارع ولا فعلَ أمر. والمراتُ كلُّها في سياقِ الإخبار عن نعم الله.

ولعلَّ الحكمةَ من وُرودها بصيغةِ الفعلِ الماضي هي الإخبارُ والتقرير، كما أَنَّ الفعل الماضي يدلُّ على الثبات والاستقرار.

«دلالة إسنادها إلى الله»

٢ ـ أُسْنِدَ الفعلُ الماضي في سبعَ عشرةَ مرَّةً إلى الله ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ و ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ و ﴿الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ و ﴿إذا أَنْعَمْنا على الإنسان﴾ و ﴿نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلى قَوْمٍ﴾.

وهذا الإسنادُ حقيقيٌّ. لأنَّ اللَّهَ وحدَه هو الَّذي ينعمُ على الإنسان، وكلُّ ما سوى الله من المخلوقين والوسائط والأسباب لا يوصِلونَ نعمةً لإنسانٍ إلّا إذا قدَّرَ اللَّهُ ذلكَ وأَرادَهُ. فالمخلوقونَ عبارةٌ عن أَسبابٍ ووسائلَ لتوصيلِ نعمةِ الله للإنسانِ. فاللَّهُ وحدَه هو صاحبُ «الإنعام»، ولذلكَ جاءَ «فاعلاً» للفعلِ في المرّاتِ المذكورة.

«معنى إسنادها للرسول»

٣ ـ أُسندَ الفعلُ الماضي «أنعَمَ» مرَّةً إلى غيرِ الله. فما هو السياقُ؟ وما هي الحكمةُ من ذلك؟

قالَ تعالى للرسولِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾[1].

الكلامُ في الآيةِ عن الصحابيِّ «زيدَ بنِ حارثة» ــ رضي الله عنه ــ، فقدْ كانَ «زيدٌ» عَبْداً رقيقاً عندَ الرسولِ عليه السلام قبلَ البعثة، ثم أعتقهُ الرسولُ عليه السلام وتبنّاه. . . ولمّا أبطلَ اللَّهُ التبنّي عادَ زيد لِيُنْسبَ إلى أبيه، فصارَ يُقالُ له «زيد بن حارثة»، وقد زوَّجَهُ الرسولُ عليه السلام من ابنةِ عمَّتِه «زينب بنت جحش» ــ رضي الله عنها ــ وقد نشبتْ بين الزوجيْن خلافات، وكان الرسولُ عليه السلام يحاولُ الإصلاحَ بينهما.

ونلاحظُ أنَّ الآيةَ ذكرتْ نعمتيْن غامرتَيْن على زيد بن حارثة:

الأولى: نعمــةُ الله عليه ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾، وذلكَ بأَنْ هداهُ إلى الإسلام، وهوَ أعظمُ نعمةٍ على المسلم في الحياة، تُساوي أَوْ تزيدُ على نعمةِ وُجودِه.

الثانية: نعمةُ الرسول ــ عليه السلام ــ عليه بالعتقِ والحرية ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾.

وإسْنادُ النعمةِ للرسول عليه السلام إسْنادٌ مجازيٌّ ظاهريٌّ وليسَ حقيقياً. فاللَّهُ هو الَّذي قدَّر لزيدِ بن حارثة أَنْ يُعْتَق، وهو الذي أَلهمَ الرسولَ عليه السلام أَنْ يعتقه، فالرسولُ عليه السلام سببٌ ظاهريٌّ لوصولِ نعمةِ اللَّهِ إلى زيد بن حارثة ــ رضي الله عنه ــ.

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

«أَنْعَمَ» و «نعَّمَ»

وردَ الفعلُ «أَنْعَمَ» سبعَ عشرةَ مرَّة في القرآن.

وورد الفعل «نَعَّمَ» مرةً واحدة.

فما هو السياقُ الذي وردَ فيه الفعلُ «نَعَّمَ»؟ وما هو الفرقُ بينه وبين «أَنْعَمَ»؟

قالَ تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

كلٌّ منَ الفعلَيْن رُباعيّ، لكن «أَنْعَمَ» مَزيدٌ بالهمزةِ، و «نَعَّمَ» مزيدٌ بالتضعيف.

كلمةُ «أَنْعَمَ» وردتْ في سياق الإخبارِ عن نَعَمِ اللّهِ على الإنسان.

«نعَّم: في سياق الذَّم»

أَما كلمةُ «نَعَّمَ» فقد ورَدتْ في سياقِ الذَّمِّ، حيثُ تذمُّ تصوُّرَ أصحابها لحقيقةِ نعمِ الله، وتخطِّئُهم في هذا التصوُّر.

إنَّ الأَغبياءَ السُّذَّجَ الجاهلين لا يعرفونَ أَساسَ تكريمِ اللّهِ وتفضيلِه للإنسان، فيظنّونَ هذا الإكرامَ قائِماً على أَساس الإنعام. فكلُّ مَنْ أعطاهُ النِّعَمَ المادية فقدْ أكرمه وأَحبَّه وفضَّله، وكلُّ مَنْ ضيَّقَ عليه رزقَه فقد أَبْعَدَه وأَهَانه!

وهذا تصوُّرٌ باطل، وفهْمٌ مغلوطٌ مردود.

وقدْ ردَّهُ القرآنُ وأَبْطَلَه ونقضَه حيثُ قال بعدَ ذلك: ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ ﴾[2]، أَيْ: كلاّ. ليسَ الأَمرُ كذلك، فما كانَ التكريمُ عندَ الله قائماً

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ١٥، ١٦.

(٢) سورة الفجر: الآية ١٧.

على أساسِ الإنعامِ الماديِّ الماليِّ الدنيوي.

إذَنْ «نَعَّمَ» وردتْ في سياقِ الذَّمِّ، وأتْبَعَها القرآنُ بالنقضِ والإبطال. وهذا لم يحصُلْ لسياقِ مرّاتِ وُرودِ كلمةِ «أنْعَمَ».

«إضافةُ النعمة إلى الله»

وردتِ النِّعمةُ ـ في صورتها الاسمية ـ مضافةً إلى الله، إحدى وخمسين مرة. مثل: «نعمة الله، نعمتي، نعمته، نعمتك، نِعَمَهُ، أَنْعُمِ الله، أَنْعُمِه».

«إضافة حقيقية»

وهذه الإضافةُ إضافةٌ حقيقية، لأنَّ النعمَ كلُّها من عند الله، والمنعِم هو الله، ولا يملكُ أحدٌ من المخلوقين أنْ يوصِلَ نعمةً لآخرَ إلَّا بإذن الله.

قالَ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾[1].

ونِعَمُ اللهِ على المخلوقين لا تُعَدُّ ولا تُحصى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[2].

«استفادتنا من هذه الإضافة»

ونستفيدُ نحنُ من إضافةِ النعمةِ إلى الله ثلاثةَ أُمور:

الأول: أنْ يزدادَ حبُّنا لله، لأنَّ النفوسَ قد جُبلت على محبَّةِ وشُكرِ مَنْ أَحسن إليها، وأنْ يزدادَ شكرُنا لله، وذكرُنا له، واعترافُنا بفضلِه ونعمتِه وإحسانِه.

(١) سورة النحل: الآيتان ٥٣، ٥٤. (٢) سورة إبراهيم: الآية ٣٤.

الثاني: أنْ نستخدمَ هـذه النعمَ في شكرِ الله وفي عبـادتِه وفي طـاعتِه، ونجعلُها عوناً لنا على قيـامِنا بـالخلافـة في الأرض على منهج الله. فـلا معنى لأنْ نستخدمَ نعمةَ الله في عصيانِه ومخالفةِ أوامره.

الثالث: أنْ لا نتيهَ ونتفـاخـرَ ونتكبَّـر على الآخرين، إذا كنّـا سبباً في إيصالِ نعمةٍ من الله إليهم.

إننا ندعو مَنْ يتفاخرون ويتباهَوْن وينتَفشون عندما يقدِّمون ــ بإذنِ الله ــ نعمةً للآخرين، إلى التواضـعِ بينَ يديِ الله، فـلا يظنّـون أنهم هم المُنْعِمون على غيرهم، وأنهم صانعون لها.

نقــولُ لهؤلاء: تخلَّوْا عن إذلال الآخــرين، والمنِّ عليهم. وبــدلَ أنْ تفعلوا ذلك، توجَّهوا إلى الله بالشكر، حيث سخَّركم لتـوصيلِ الخيـر والإنعام للآخرين.

ونقولُ للمَنْعَمِ عليهم: اعرفوا هذه الحقيقة، وأَيْقِنوا أنَّ المنعِم هو الله. فلا تقبَلوا بالـذِلِّ والاستعباد لأحـد، وتوجَّهـوا إلى الله وحده بـالذلِّ والخضـوع والخشوع، وأفرِدوه وحدَه بالعبادة والتوكُّل.

«ورود «النعمة» مجردة عن الإضافة»

وردت «النعمةُ» مجرَّدةً عنِ الإضافةِ مرتيْن:

الأولى: في قولِ موسى ــ عليه السلام ــ لفرعونَ: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾[1].

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٢.

«ورودها في سياق الإنكار»

وقد وردتْ هذه «النعمةُ» المجردةُ هنا، في سياقِ الإنكار والرفض. فعندَما دعا موسى ـ عليه السلام ـ فرعونَ إلى الإيمان بالله، ذكَّره فرعونُ بالماضي، عندما رُبّيَ في قصر فرعون، وعندما قَتَلَ القبطيّ، فكيفَ يعودُ الآنَ نبياً؟

قال تعالى: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾[1].

وكأنَّ موسى يقولُ لفرعون: وهل هذه نعمةٌ تبرِّرُ لكَ استبعادَ بني إسرائيل؟ هل هذه نعمةٌ منك عليَّ؟ إنَّها ليست نعمةً منك عليَّ أنْ ربّيْتني وليداً، لستَ أنتَ المنعِم في الحقيقة، إنما المنعم عليَّ هو الله، وأنتَ سببٌ ووسيلة فقط، فكيفَ تعتبرُها نعمةً منك؟ وكيف تدَّعي أنك أنت المنعِم؟

«وورودها في سياق النفي»

الثانية: في قولِ الله عن أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وثنائِه على إنفاقِه مالَه في سبيل الله، وإعتاقِه العبيدَ لوجه الله: ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾[2].

وورودُ النعمةِ مجرَّدةً هنا في سياقِ النفي، حيثُ تنفي أنْ يكونَ هدفَ

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ١٨ ـ ٢٢.

(٢) سورة الليل: الآيات ١٧ ـ ٢١.

الصِّدّيق من إنفاقِ المال مجازاةَ أَحدٍ على نعمةٍ منه على الصِّدّيق، فما لأحدٍ عندَه من نعمةٍ تُجْزى، إنما إنفاقُه المالَ ابتغاءَ لوجهِ ربِّه الأعلى.

أَيْ إنَّها تنفي وجودَ نعمةٍ لأَحَدٍ من البشرِ على الصِّدّيق. وهذا النفيُ يتضمنُ الإقرارَ بأنَّ النعم التي عليه هي من الله وحدَه.

لقدْ وردت «النِّعمةُ» مجرَّدَةً عن الإضافة ـ أَيْ إنها لم تُضَفْ إلى الله ـ مرَّةً في سياقِ الإنكار، ومرَّةً في سياقِ النفي.

أيْ تنكرُ أَنْ يكونَ لأحدٍ على أَحد نعمةٌ، لأنَّ المنعِمَ هو الله!

وتنفي أَنْ يكونَ لأحدٍ على أَحدٍ نعمة، لأنَّ المنعِمَ هو الله!

فورودُها مجرَّدَةً عن الإضافة في هاتيْن المرتيْن، يعزِّزُ ويؤكِّدُ ورودَها مضافةً إلى الله إحدى وخمسين مرة.

والخلاصةُ: أَنَّ «النعمةَ» وتصريفاتِها ـ في صورتِها الاسمية ـ وردَتْ ثلاثاً وخمسين مرة:

إحدى وخمسين مرَّةً مضافةً إلى الله، تقرِّرُ صراحةً أنَّ كلَّ نعمةٍ من الله.

ومرَّتين مجرَّدةً عن الإضافةِ تستنكرُ إضافةَ النعمةِ لغير الله، وتنفي إضافةَ النعمةِ لغيرِ الله، فهما شاهدتانِ على قَصْرِ النعمة على الله، وحصْرِها بالله ـ سبحانه ـ!

«النِّعمة» و «النَّعمة»

وردتْ كلمةُ «نِعْمَة» ـ بالإفراد وكسرِ النون ـ سبعاً وأَربعين مرة.

ووردتْ كلمةُ «نَعْمَة» ـ بالإفراد وفتحِ النون ـ مرتيْن.

فما هو الفرقُ بين الكلمتيْن؟ وما هو السياقُ الذي وردتْ فيه كلمةُ «نَعْمة»؟

«النِّعمة : اسم هيئة»

«النِّعمة» ـ بالكسر ـ اسمُ هيئة. قال الراغب: «وبناءُ النِّعمة بناءَ الحالة التي يكونُ عليها الإنسان، كالجِلسةِ والرِّكبة.

ومعنى كونِها اسمَ هيئة: أنها تشيرُ إلى الحالةِ المستمرَّة الدائمةِ للإنسان وتدلُّ على هيئتِه وهو يتقلَّبُ في نِعَمِ الله.

«النَّعمـــة : اسم مــرَّة»

أما «النَّعمةُ» ـ بالفتح ـ فهي اسمُ مَرَّة. قال الراغب: «وبناءُ النَّعمة بناءَ المَرَّةِ من الفعلِ كالضَّربة والشَّتمة».

ومعنى كونِها اسْمَ مَرَّة: أنَّها توحي كأنَّ النَّعمة لم تُصِبْ صاحِبَها إلاَّ مَرَّة واحدة، وتوحي بقِصَرِ مدَّتِها وسرعةِ زوالِها.

ما هو السياقُ الذي وردتْ فيه «النَّعمة» في مرَّتَيْ ورودِها؟

إنه سياقُ التقليلِ للنِّعمِ على الكفار، وبيانِ سرعةِ انقضائِها وزوالِها.

«(نَعمة) فرعون وقومه عند إغراقهم»

قالَ تعالى عن فرعونَ وجنوده بعدما أغرقهم في البحر: ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ ﴾[1].

لقد تركَ فرعونُ وقومُه خلفَهم الجناتِ والعيونَ والزروعَ والمقامَ الكريم، والنَّعمةِ التي كانوا فيها فاكهين، تَركوها لغيرِهم، ولم ينتفِعوا بها بعدَ موتِهم.

---

(١) سورة الدخان: الآيات ٢٥ ـ ٢٨.

لقد اعتبرَها القرآنُ كأنَّها نعمة واحدة، مع أنها نِعَمٌ كثيرة: جناتٌ وعيونٌ وزروعٌ ومقامٌ كريم، لأنها زالتْ عنهم، فلسرعةِ زوالِها وفواتِها كأنَّها نعمةٌ واحدة.

واعتبرَ القرآنُ كأنهم لم يتنعَّموا بها إلَّا مرةً واحدة، مع أنهم عاشوا متنعِّمين فيها عشراتِ السنين، بسبب ما هم مقبلونَ عليه وصائرونَ إليه من عذاب النار.

سَوْفَ يُعْرَضون على النارِ غُدُوّاً وعشيّاً طيلةَ حياتهم الخاصة في قبورهم ـ وهي مدةٌ زمنيةٌ طويلةٌ لا يعلمُها إلَّا الله، قد تستمرُّ عشراتِ الملايينَ من السنين ـ فما هي نسبةُ أَعمارِهم في الدنيا التي لا تتجاوزُ عشراتِ السنين ـ وهم فيها منعَّمون ـ إلى نسبةِ حياتهم في البرزخ معذَّبين التي قد تستمرُّ الملايينَ من السنين؟

ثم ما هي نسبةُ حياتِهم في الدنيا منعَّمين عشراتِ السنين، إلى ذهابهم لعذابِ النارِ الأبدي يوم القيامة؟

وصدقَ اللّهُ حيثُ يقول: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾[1]. لهذا كلِّه ناسبَ أنْ تأتيَ كلمةُ «نَعْمَة» تعبيراً عن ما كانَ فيه فرعونُ وجنودُه قبلَ غرقِهم، لتُفيدَ كأنَّ كلَّ تلك النِّعم «نَعْمَة» واحدَة، استمتَعُوا بها مرَّةً واحدة، للحظةٍ واحدة.

وهي تريدُ أنْ تُلقيَ في حسِّ المتدبِّرِ للقرآن هذا الظل، ليعرفَ قيمةَ ما يتنعم به في الدُّنيا بالقياسِ إلى عذابِ الآخرة، إنْ هو عصىٰ الله، وخالفَ منهَجَه القويم، واستخدمَ نِعَمَهُ في ما يُغضبُ به وجهَه الكريم!

---

(١) سورة غافر: الآيتان ٤٥، ٤٦.

«المكذِّبون أولو (النَّعمة)»

المرةُ الثانيةُ لذِكْر «النَّعمة» بالفتح، في قولِه تعالى: ﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ ﴾[1].

تتحدَّثُ الآياتُ عن عذابِ الكفّار المكذِّبين المُتْرَفين يومَ القيامة، وتَعرِضُ من خلالِه قيمةَ تنعُّمِهم بالنِّعم الكثيرةِ في الدنيا، ذلكَ التنعُّمُ الذي استمرَّ عشراتِ السنين، فماذا يساوي بالقياسِ إلى عذابِهم الأبديِّ الدائمِ الخالدِ في جهنَّم؟

لهذا ناسبَ أنْ تأتيَ «النَّعمةُ» بالفتح، وأَن يُضافوا إليها «أُولي النَّعْمَة» لتفيدَ معنى المرةِ الواحدة، كأَنَّهم لم يتنعَّموا في حياتِهم الدنيوية إلَّا بنعمةٍ واحدة، مرةً واحدة، للحظةٍ واحدة.

وقد بيَّن رسولُ الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم هذا المعنى، وأَشارَ إلى أَنَّ الكافرَ يومَ القيامةِ يُغمسُ غمسةً في النار، ثم يُسألُ عن تنعُّمه في الدنيا، فيجيبُ بأنه لم يذُقْه قطّ!

روى مسلمٌ عن أَنسِ بنِ مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قالَ رسولُ الله ـ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ـ: «يُؤْتَى بأَنْعَمِ أَهلِ الدنيا، من أَهْلِ النار، يومَ القيامة، فَيُصْبَغُ في النار صَبغة، ثم يُقال: يا ابْنَ آدم! هل رأَيْتَ خيراً قطّ؟ هلْ مرَّ بِكَ نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويُؤْتى بأَشَدِّ الناس بُؤْساً في الدنيا من أَهلِ الجنة، فيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجنة، فيُقال له: يا ابْنَ آدم، هلْ رأَيْتَ بُؤْساً قطّ؟ هل مرَّ بك شدَّةٌ قطّ؟ فيقولُ: لا، والله يا رب. ما مرَّ بي بؤسٌ قط، ولا رأيتُ شدَّةً قط»[2].

---

(١) سورة المزمل: الآيات ١١ ـ ١٣.

(٢) صحيح مسلم: (٥٠) كتاب صفات المنافقين، (١٢) باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار، حديث: ٢٨٠٧.

«النِّعمة والنَّعْماء»

وردتْ كلمةُ «نَعماءَ» مرَّةً واحدةً في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾[1].

فما هو الفرقُ بين النِّعمةِ والنَّعماء؟

عرفْنا أَنَّ النِّعمةِ هي الحالةُ الدائمةُ للإنسان، وهي اسمُ هيئة.

أَمَّا النَّعماءُ فهي مأخوذةٌ من «النَّعمة» ـ بفتح النون ـ.

وقد عرَفْنا أَنَّ «النَّعمة» هي اسمُ مرَّةٍ من النِّعمة. فالنَّعماءُ كذلك توحي بالمرَّة من النِّعمة.

«النعماء: مقابلة للضراء»

والسياقُ الذي وردتْ فيه النعماءُ يوحي بهذا.

إنَّ السياقَ يتحدثُ عن موقفِ الإنسان من حالتَيْن: الرحمةِ يذوقُها ثم تُنزع عنه، والنَّعماءِ تصيبُه بعد الضرّاء.

فالنَّعماءُ هنا في مقابلِ الضّرّاء. والتقابُلُ بين حالتَيْن تُصيبان الإنسان، لا ثالثَ لهما، فالإنسانُ إمّا في نَعماء أو في ضرّاء.

ولهذا جاءت «نَعْماء» بفتح النون، لأنهُ لا يُرادُ هنا ذِكْرُ النعم الكثيرة، بل يرادُ الإشارةُ إلى جنسِ النِّعَم وصنفِها، ووضْعِها في مقابلِ جنس الضّرّاء وصنفها.

أما الفرقُ بين النِّعمةِ والنَّعماء: فهو أَنَّ «النَّعمةَ» هي المرَّةُ الواحدة

(١) سورة هود: الآيتان ٩، ١٠.

الـواردةُ في سياق النِّعمـةِ الذَّاهبـة التي لا تعودُ، والتي يحـلُّ محلَّهـا العـذابُ الشـديـد ـ عـذابُ آلِ فـرعـون في البـرزخ، وعـذابُ الكفـار في النـارِ يـوم القيامة ـ.

أما «النَّعماء» فهي المرَّةُ الواحدة من النِّعمةِ الـواردةُ في سياقِ «النَّعمـاء» القادمةِ على صاحبها، بديلاً عن الضَّراءِ الذاهبةِ عنه ـ والله أعلم ـ.

«النِّعَـم والأَنْعُـم»

كمـا فرَّقْنـا بين «النِّعمة» و «النَّعمـة» و «النَّعماء»، نحـاولُ أن نفـرِّق بين كلمتَيْ جمعٍ، وهما «النِّعَم» و «الأَنْعُم».

كلٌّ من «النِّعَمِ» و «الأَنْعُمِ» صيغةُ جمعٍ لكلمةِ «نِعْمَة».

كلمةُ «نِعَم» وردَتْ مرَّةً واحدة، في قولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1].

أَمَّـا كلمةُ «أَنْعُم» فقـدْ وردَتْ مرَّتيْن، في سـورةِ النحـل ـ سـورةِ النِّعَم والأَنْعُم ـ.

الأولى: إشـارةً إلى مكة، القـريةِ التي كـانتْ آمنَـةً مـطمئنَّـة، فكفـرتْ بأنْعُمِ الله، فبدَّل الله حالها. قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾[2].

الثـانيـةُ: في مـدح إبـراهيمَ عليـه السـلام والثنـاءِ عليـه. قـالَ تعـالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ

---

(١) سورة لقمان: الآية ٢٠.

(٢) سورة النحل: الآية ١١٢.

﴿... ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾(1).

وعندما ننظرُ في السِّياقِ لكلٍّ من المواضعِ الثلاثة، سندرِكُ الفَرْقَ بين الكلمتين.

«النعم شاملة للظاهرة والباطنة»

«النِّعَم» أَعمُّ من الأَنْعُم، فهي شاملةٌ للنِّعَم الظاهرةِ مثلِ المالِ والمتاع والعَقار، والنعم الباطنة مثلِ الصحةِ والعافيةِ والسعادةِ والهناءِ، شاملةٌ للنعمِ الدقيقةِ الخفيَّة، والنعمِ الجليلة البارزة، شاملةٌ للنعم في داخلِ النفس وفي واقع الحياة، نِعَمِ الروح ونِعَمِ الجسد، نِعَمِ الشعور ونِعَمِ العمل.

ونأخذُ هذيْن النوعيْن من نوعي النِّعمِ من الآية، حيثُ قال فيها: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾، فقسَّمَ النِّعَمَ لقسميْن: نعمٍ ظاهرة، ونعمٍ باطنة.

«الأنعم: خاصة بالظاهرة»

أَمّا «الأَنْعُم» فهي أَخصُّ من النِّعم، إنها خاصةٌ بالنِّعَمِ الظاهرة.

فالقريةُ ــ مكةُ ــ التي ضربَ اللّهُ بها المَثَلَ للكافرين، كانتْ تَستمتعُ بنِعَمِ الله، من الأَمْن والاطمئنانِ الملحوظيْن عليها وعلى أَصحابها، والبارِزَيْن الظاهريْن فيها وفي حياةِ أَصحابها، بدليلِ هذا الرزقِ الرَّغَدِ ــ وهو ظاهرٌ بارز ــ الذي يأْتيها من كلِّ مكان.

فكفرَتْ قريشٌ بهذه الأَنْعُمِ الربانيةِ الظاهرة، فسَلَبَها اللّهُ هذه الأَنْعُم، وأَلْبَسَها لباسَ الجوع والخوف، واللباسُ عقوبةٌ ظاهرةٌ بديلٌ عن أَنْعُمٍ ظاهرة، وكأنه شيءٌ بارزٌ ظاهرٌ يغطّي ما تحتَه.

---

(1) سورة النحل: الآيتان ١٢٠، ١٢١.

والمثالُ الثاني للأنعم، هو أَثرُ هذه الأنعُم على النفوسِ المؤمنة، ويقدِّمُ القرآن صورةً مشرقةً رضيَّةً لهذه النفوس، وشكرها لأَنْعُمِ الله، ممثّلةً في أبي الأنبياءِ إبراهيم ـ عليه السلام ـ فهو شاكرٌ لأَنْعُمِ الله عليه الظاهرة ـ وهو أيضاً شاكرٌ لنعَمِ الله الباطنة ـ المتمثلةِ في ولديْه إسماعيل وإسحاق ـ عليهما السلام ـ وفي إسكانِ أَهْله بوادٍ غير ذي زرع عند بيتِه المحرَّم، وفي بنائِه البيتَ المحرم هناك . . . وهذه كلُّها نِعَمٌ ظاهرة.

ونلحظُ الارتباطَ الوثيقَ بين «الأَنْعُمِ» الظاهرة في الآيتَيْن:

فقريشٌ في مكة كفَرَتْ بأَنْعُمِ الله الظاهرةِ المتمثِّلة بالرزقِ الرَّغَدِ يأتيها من كلِّ مكان.

وإبراهيمُ عليه السلام ـ الذي يزعم القرشيونَ الانتسابَ إليه ـ كان شاكراً لأَنْعُمِ الله الظاهرة. فلماذا لا يقتدونَ بجَدِّهم ـ عليه السلام ـ ويشكرونَ أَنْعُمَ الله كما شَكَرَ، بدلَ أَنْ يكفروا بأَنْعُمِ الله تلك.

قريشٌ ﴿كَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِباسَ الجوعِ وَالخَوْفِ﴾.

وإبراهيمُ ـ عليه السلام ـ كانَ ﴿شاكِراً لأَنْعُمِهِ، اجْتَباهُ وَهَداهُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيم﴾!

«النِّعَم والأنعام»

نقفُ الآن لنفرِّقَ بين النِّعَمِ والأَنْعَام.

قلنا: إنَّ «النِّعَم» جمعُ نعمة، وهي عامةٌ تشملُ النِّعَمَ الظاهرةَ والباطنة.

أَما «الأنعام» فهي خاصةٌ بنوعٍ من أَنواعِ النِّعَمِ الظاهرة، وهو الماشيةُ من الإبلِ والبقرِ والغنم.

«فروق بين أربع كلمات»

عندنا أَربَعُ كلماتٍ متقاربة في المعنى، لكنها ليستْ مترادفة، بلْ بينَهـا فروقٌ يسيرة، وبخاصة في الاستعمال.

نُرتِّبها حسبَ مستوياتِ عمومِها: النِّعَم، الأَنْعُم، الأَنْعام، النَّعَم.

النِّعَم شـاملةٌ للأَنْعُم والنَّعَم والأَنْعَـام، لأنها تُـطلقُ على النِّعم الظاهـرةِ والباطنة.

والأَنْعُم خاصةٌ بالنِّعَم الظاهرة، لكنها تُطلقُ على الأَنْعام والنَّعَم.

والأَنْعامُ خاصةٌ بالحيواناتِ الأَليفة وهي: الإِبلُ والبقرُ والغنَمُ.

والنَّعَمُ خاصَّةٌ بنوعٍ واحدٍ من الأَنْعام وهو الإِبلُ فقط.

الأَنعـامُ في تعريفِ الـراغبِ الأصفهانيّ: «تُقـالُ لـلإِبـلِ والبقـرِ والغنم ولا يُقالُ لها أَنْعام حتّى تَكونَ مَعَها الإبل».

«الأنعام: أنعم ظاهرة»

وسُمِّيتْ هذه الأصنافُ الثلاثة أنعاماً، لأنَّهـا من «الأَنْعُم» ــ أي: النِّعمِ الظاهرة ــ ومجالُ التَّنَعُّم فيها واسع، ومظاهرُ الإنعام فيها بارزة، وقد امتَن اللَّهُ علينا بِتسخيرِ هذه الأَنعامِ لنا. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾(١).

وقد ذُكِرَتِ الأَنعامُ اثنتين وثلاثين مـرَّة في القرآن. منهـا سِتُّ مرّات في سورةِ «الأَنْعام» نفسِها. وثلاثُ مرّات في سورةِ «النَّحل» ــ سورةِ النِّعَم ــ.

---

(١) سورة يس: الآيات ٧١ ــ ٧٣.

والأنعامُ في الحقيقةِ أربعةُ أصْناف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾(1).

«الأنعام ثمانية أزواج»

وهذهِ الأزواجُ الثمانيـةُ من الأنعام مـذكورةٌ بـإجمالٍ في سـورةِ الزُّمَـر، لكنها مفصَّلةٌ في سورةِ الأنعام:

قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾(3).

والمرادُ بالزوجِ الذكرُ والأُنثى من كلِّ صنف، فـإذا كانَ قـد ذَكَر أَربعـةَ أصنافٍ هي: الإبلُ والبقـرُ والضَأْنُ والمعـز، وكان كـلٌّ واحدٍ منهمـا زوجيْن: ذكرٍ وأُنثى، كان مجموعُ الأنعام «ثَمانِيَةَ أَزْوَاجٍ».

«الأَنْعـامُ والنَّعَـمُ»

عرَفْنَا أَنَّ الأَنعامَ تُطلقُ على الإبلِ والبقرِ والغنم، وأنها ثمانيةُ أَزواج.

أَمَّا «النَّعم» فهي خاصَّةٌ بالإبلِ، لا تُطلقُ على غيرِها، فالنَّعَمُ أخصُّ من الأنعام.

«النَّعَـم: الإبـل»

وقد وردَت «النَّعَم» مرةً واحدةً في القرآن، في كفارةِ الحاجِّ المحرم إذا قَتَلَ صَيْداً. قالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم

---

(1) سورة الزمر: الآية ٦.

(2) سورة الأنعام: الآية ١٤٣.

(3) سورة الأنعام: الآية ١٤٤.

مُتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾[1].

صحيحٌ أَنَّ كلمةَ «النَّعَم» هنا لا يُرادُ بها الإبل فقط، بل هي شاملةٌ لأصنافِ الأنعامِ الأربعةِ: الإبلِ والبقرِ والضأنِ والماعز.

فَمَنْ قَتَلَ صيداً عامداً وهو مُحْرِم، عليه أن يدفعَ كفّارةً، أَحَدَ الأنعام قريباً من حجْمِه، ليكونَ مثْلَه: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ ما قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾.

لكن عندنا بعضُ الأحاديثِ عن رسولِ الله صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وبعضُ الرواياتِ عن الصحابة، تجعلُ النَّعَمَ خاصَّةً بالإبل.

روى مسلمٌ عن أَنَسِ بنِ مالك ــ رضي الله عنه ــ في أَحداثِ غزوةِ «حُنَين» روايتَه عن جيشِ هوازن وثقيف. قال: «ثُمَّ إنّا غَزَوْنا حُنَيْناً، فَجاءَ المشركونَ بأَحسن صفوفٍ رَأَيْتُ، فَصُفَّتِ الخيلُ، ثم صُفَّتِ المقاتِلَة، ثم صُفَّتِ النساءُ مِنْ وراءِ ذلك، ثم صُفَّتِ الغَنَمُ. ثم صُفَّتِ النَّعَمُ. . .»[2].

فذكرَ أنسٌ النَّعَمَ بجانب الغنم، وأرادَ بالنَّعَم الإبل.

وروى البخاري عن سهلِ بنِ سعدٍ في قصةِ عليّ بن أَبي طالب ــ رضي الله عنه ــ يومَ خيبر: أنَّ الرسولَ ــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ــ أعطاهُ الرايةَ ووجَّهه لقتالِ اليهود في خيبر قائلاً: «أُنْفُذْ على رِسْلِك، حتى تنزِلَ بساحَتِهم، ثمَّ ادْعُهُم إلى الإسلام وأَخْبِرْهُم بما يجبُ عليهِمْ من حَقِّ الله فيه. فوالله لأنْ يهديَ اللَّهُ بك رجلاً واحداً، خيرٌ لك من أنْ يكونَ لكَ حُمْرُ النَّعَم»[3].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٥.

(٢) صحيح مسلم: (١٢) كتاب الزكاة، (٤٦) باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث رقم: ١٠٥٩.

(٣) صحيح البخاري: (٥٦) كتاب الجهاد، (١٠٢) دعاء النبي الناس إلى الإسلام حديث رقم: ٢٩٤٢.

وحمرُ النَّعَم: هي الإبلُ ذاتُ اللونِ الأحمر، وهي أفضلُ وأنفَسُ أنواع الإبل عندَ العرب، يُضربُ بها المثَلُ لنفاستِها وارتفاعِ قيمتِها وغنى صاحبِها.

«النِّعمة والنَّعيم»

نقفُ أخيراً لنبيِّن الفرقَ بين «النِّعْمة» و«النَّعيم» في القرآن.

فالنِّعمةُ ـ كما بيَّنّا ـ الحالةُ الدائمةُ للإنسان، لأنَّها اسمُ هيئة.

أمّا «النَّعيم» فهو أخصُّ من النعمة.

هو من زاويةٍ: «النعمةُ الكثيرة» ـ كما ذكَرَ الإمامُ الراغب ـ وهو من حيثُ الاستعمالُ القرآني: خاصٌّ في نعيمِ الجنَّة فقط.

الفرقُ بينهما إذن:

أنَّ النعمةَ أُطلقَتْ في القرآنِ على نِعَمِ الدنيا الظاهرةِ والباطنة، وهي نَعَمٌ زائلةٌ فانية.

«النعيم: نعيم الجنة»

أَما النَّعيمُ فقد أُطلقَ على نعيمِ الآخرة، النعيمِ الدائمِ الخالدِ الباقي الذي يستمتعُ به المتقون في الجنةِ مخلَّدين فيها.

وقد وردتْ كلمةُ «النعيم» في القرآن ستَّ عشرةَ مرة معرَّفةً بأل التعريف، ووردتْ مرةً واحدةً نكرةً مفعولاً به.

من الأمثلةِ على ذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[1].

وقولُه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ

---

(١) سورة الواقعة: الآيتان ٨٨، ٨٩.

﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٦٥﴾[1].

ويلاحَظُ أنَّ السياقَ كان يذكُر كلمةَ «جنَّة» أو «جنّات» في الآيةِ التي تَذكُر كلمةَ النعيم، مما يرجِّحُ أَنَّ النعيمَ خاصٌّ بنعيمِ الجنة.

«معنى: لتسألُنَّ النعيم»

بقيتْ آيةٌ أَوْرَدَتْ كلمةَ «النعيم» قد تبدو فيها مخالِفةً لهذه القاعدة:

قالَ تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾[2].

فما المرادُ بالنعيمِ في هذه الآيات؟ هلْ هو نعيمُ الدنيا أَمْ نعيمُ الآخرة؟

بعضُ المفسِّرين ذهبَ إلى أنه نعيمُ الدنيا، وأَنْ الإنسانَ يُحاسَبُ يومَ القيامة على النعيمِ الذي كان يستخدمُه في الدنيا.

لكنُ عندما ننظرُ في السياق نرى أنَّ المرادَ به «نعيمُ» الجنة في الآخرة.

الكلامُ في الآيات للكفار، والسياقُ في تهديدِهم وتأنيبِهم يومَ القيامة يهدِّدُهم بأنهم سوف يروْنَ الجحيمَ هناك، يَرَوْنَها بعيونهم، ويتيقّنون من وجودِها، عندما يدخلونَها ويكونون فيها.

«السؤال للسخرية والتهكُّم»

وهناكَ وهُم وسطَ الجحيم سيُسْأَلون عن النعيم، والمرادُ بالسؤال هنا ليس سؤالَ محاسبة، فقد حُوسِبوا ووُزِنَتْ أعمالُهم، وحُكِمَ عليهم بدخول النار. السؤالُ هنا سؤالُ تبكيتٍ وتأنيبٍ واستهزاء.

(١) سورة المائدة: الآية ٦٥.

(٢) سورة التكاثر: الآيات ٦ ــ ٨.

وكأنَّ السؤالَ للمقابلةِ بين حالتَيْن: حالةِ النعيم للمؤمنين، وحالةِ العذاب لهم، وكأنَّهُ يُقالُ لهُم: أَيُّهما أفضل؟ العذابُ الذي تذوقونه الآنَ في الجحيم؟ أمْ النعيمُ الذي فاتكُم بسببِ كفركم في الدنيا؟ النعيمُ الذي يستمتعُ به المؤمنونَ الآنَ في الجنة؟

وكأنَّ معنى قوله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ لَتُسْأَلُنَّ عندَ إدخالكُم الجحيم، عن نعيمِ الجنة، الذي حُرمتُم منه، والذي يستمتعُ به المؤمنون، وذلكَ لزيادةِ حسرتِهم، وللمبالغةِ في تأنيبهم. ــ والله أعلم ــ.

ويبدو أنَّ الحكمةَ من إطلاق النعيمِ على نعيمِ الجنة هي كثرةُ نِعَمِ الجنة ودوامها. فالنعيمُ هو النِّعَمُ الكثيرة، ونعيمُ الجنة كثيرٌ دائمٌ مستمرٌ متجدِّدٌ مقيم. كما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

* * *

(١) سورة التوبة: الآيات ٢٠ ــ ٢٢.

خَاتِــمَة

«وأما بنعمة ربك فحدث»

نختمُ جولتَنا السريعةَ مع «النِّعمة في القرآن» بإشارةٍ سريعة إلى الحديثِ عن نعمةِ الله. ونجعلُ هذه الإشارةَ خاتمةً لما قدَّمْنا من «لطائف قرآنية» باعتبارِ الوقوفِ على هذه اللطائفِ في كتاب الله نعمةً غامرةً مِنَ الله علينا، يجبُ علينا الاعترافُ بفضلِ الله علينا فيها ــ وفي غيرِها ــ ويجبُ علينا الحديثُ عنها ونشرُها بين المسلمين.

أَمَرَ اللَّهُ رسولَه ــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ــ بالحديثِ عن نعمة ربِّه عليه في قوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾[1].

ولقد نفَّذَ رسولُ الله ــ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم ــ الأمرَ الربّاني، فحدَّثَ بنعمةِ ربه، وجعلَ كلَّ وقتِه وجهدِه وعملِه حديثاً بنعمةِ ربه، وتحديثاً عنها، وبقي يتحدَّثُ بنعمةِ ربِّه حتى آخر لحظةٍ من حياتِه ــ عليه الصلاة والسلام ــ.

ولكنَّ الأمرَ الربانيَّ في الآية يشمَلُ كلَّ مسلم، لأنَّ القاعدةَ التفسيريةَ تقررُ «أنَّ أمْرَ الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ أمرٌ لأمَّتِه ما لم يَقُمْ دليلٌ على التخصيص»، فكلُّ مسلمٍ مطالبٌ بالحديث عن نعمة ربه.

وإذا كانت النعمةُ اسمَ هيئة، وجاءَ الحديثُ «فحدِّث» عاماً غيرَ مقيَّد، فإننا نشيرُ إلى بعض ما توحي به الآيةُ لنا:

---

(١) سورة الضحى: الآية ١١.

١ ـ ليسَ التحدُّثُ بنعمة الله مقصوراً على القولِ وحديثِ اللسان، بل هو شاملٌ لحديثِ اللسان، ودلالةِ الجوارح والحواسِّ. الحديثُ يشملُ القولَ والفعلَ والسلوك والحركة. فكلُّ ما يقومُ به المؤمنُ تَحَدُّثٌ بنعمةِ الله: إنْ قالَ أو فعلَ أو تحركَ.

٢ ـ النعمةُ اسم هيئة. وهذا يعني أنْ تكونَ «هيئةُ» الإنسانِ المسلم مظهراً من مظاهر نعمة الله، ومصداقاً لهذه النعمة، وترجمةً عمليةً لها، فكلُّ مَنْ رآه وتعاملَ معه يتعرَّفُ على نعمةِ الله عليه وعلى غيره. و «إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أنْ يَرى أَثَرَ نِعْمتِهِ على عبدِه».

٣ ـ من التحدُّثِ بنعمةِ الله شكرُ اللَّهِ عليها بالقولِ والفعلِ، واستخدامُ هذه النعمةِ في طاعة الله.

اللهمَّ أَعِنَّا على ذكركَ وشكركَ وحسن عبادتِك، ولا تجعَلْنا من الغافلين.

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[٢].

* * *

(١) سورة النمل: الآية ١٩.

المحتوى

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة